سامية مصطفى عياش

فراولة وكعك وشوكولاتة

SAMIA MOSTAFA AYYASH

fb/mashro3pdf

سامية مصطفى عياش

فراولة
وكعك
وشوكولاتة

قصص قصيرة

fb/mashro3pdf

إلى:

" هم "

و" أنتم "

متى تصبحون " نحن " ؟

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

مرايا

fb/mashro3pdf

فراولـة

أشار نحوي بإصبع غاضبة: قومي حلّي المسألة!

فأدركتُ أني علقت بالوحل ....

لمّا دخلتُ الصفّ متأخرة، كان صوته متسخاً بحدة وهو يصرخ بثقة النظيفين: مفهوم؟

لم يكن صوته مزعجاً بالنسبة لي رغم ذلك، كنتُ مشغولة بما هو ألعن من نتوءات صوته، بالطين الذي علق أسفل حذائي ليضاعف من ثقله، بعد مشي ثلث ساعة مؤلمة من بيتنا في أول المخيم، حتى نهايته، وصولاً إلى هذه المدرسة الصدئة!

مِلت على زينب قليلاً؛ أسألها إن كانت تملك دفتر خرابيش، أخفيت عنها أني أنوي نزع أربع ورقات دفعة واحدة، ومسح قعر حذائي بها، جيد أني أخفيت نواياي، لو علمت لكانت جُلطت من فورها... قالت إنها لا تملك أي واحد، ولا حتى في بيتهم. أنا لا أصدقها؛ والدها عنده دكان أشتري منه أقلام الرصاص، ودفاتر، وقليلاً من السكاكر التي أخفيها لأخي خالد ولأمي، أخفيها حتى عن أبي الذي سينعتني بالمسرفة إن علم، لكن، ولمجرد أن أقول لأمي: «غمْضي عينيكِ وافتحي فمك»، وألقمها ما بيدي بخفة، حتى تنفرج عن بسمة رضا، فأفرح!

fb/mashro3pdf

يكرر الأستاذ: مفهوم؟ وينظر نحوي بعينين راجيتين، لكني أصفعه ... أصفع صوته البائس الفقير، وألهو ... سيعرف الأستاذ أني غير آبهة بغضبه، وبمسألة الرياضيات السخيفة!

زممتُ شفتيّ إلى الأمام، ورفعتُ قلم الرصاص بين إبهامي وسبابتي بخفة متمرس، وتركته فوق الشفة العليا معلقاً بعد أن جررت الهواء بقوة إلى أنفي. بدا القلم معلقاً بين أنفي وشفتي العليا، كطير مهتز بين سماء وأرض ... سحرني فكرة أنه معلّق، فعاودت تعليقه مرات.

وتكرر صوت الأستاذ العجوز: مفهوم؟

لم أستطع فهم كلماته ذات المصطلحات الضخمة، فتركت صوته وشأنه، وعدت ألعب بالطير الذي يهتز بين الشفة والأنف!

ولأن صفنا يطل على ثلاثة شبابيك واسعة، فإن حصصاً كهذه فرصة لا تعوّض، للغوص خلال الشبابيك: تلاحق فتيات المخيّم الليل، في محاولة لاسترداده، عبثا! يفركن أعينهن وقد أدركن أن ما فات لن يعود، لكن لحظة الإدراك على سطوتها، تعلن أرجحة لاحتمالات القادم خلف الدروس المملة ... ربما بالتجسس على شباب المخيم، ذوي الياقات المطوية، وكرّاسات السلك الطويلة، وربما بمتابعة بنات الصفين السابع والثامن، وهنّ يخفين أجسادهنّ التي بدأت تتبرعم. أو التطفل على البيوت التي بدأت تُبنى من أسقف إسمنتية، وتتدلى منها دالية عنب لا تعلم إحداهنّ كيف كبرت هكذا، بسرعة صاروخ!

fb/mashro3pdf

كرر الأستاذ: مفهوم؟

ارتفعت الأصوات تكرر الكلمة، تلقائياً، وتزيد من ميلها أمام العجوز صاحب الأنفاس القصيرة. انتظر الأستاذ كثيراً وهو ينظر في الوجوه الندية عن الذي فُهِم. لم تكن ثمة إجابة. لقد امتدت أعينهن نحو الأمام فقط، كنوتة موسيقية قفزت خطأً، فتلف كل اللحن.

ماذا يعني أن أعرف كيف يتحوّل الموجب للسالب لو نقلته لطرف المعادلة؟ هذا سخف لا يحدث أبداً، لو نقلوني إلى مدرسة أخرى سأصبح موجبة أو سالبة مثلاً..! الأمر مضحك!!

سرقتُ نظرة نحو عينيّ الأستاذ، كان غضبه قد نضج تماماً.

سيصرخ عليّ، أعرف ذلك من نظرته التي اصطادتني ... .

أشار نحوي أخيراً: قومي حلّي المسألة!

لا مفرّ!

أمشي نحو اللوح، أرفع طبشورة خضراء كأملي في حلّ يسعفني بدل بهدلة ستستمر لأشهر قادمة كلما رآني. ببطء أحلّ المسألة، أفكّر بصوت عالٍ، وأكتب ما أفكر مرجّحة الصواب، يفقد الأستاذ صوابه كلما كنت بطيئة، يصرخ: ولِك صحّ، ليش بطيئة هالقد؟ خلصينا!

أصبحتُ بطيئة أكثر، أغيظه، أعزف على الطبشور ببطء، فيفور، ويخلّصني هو: منار! كمّلي الحلّ ... .

علقَت المسكينة!

fb/mashro3pdf

تأكل بهدلة خفيفة، ويرنّ الجرس.

الصوت البشع يصبح نافذة للجمال، لمّا أعلن انتهاء حصة الرياضيات أخيراً!

نحو الشباك المطل على الساحة، التقيتُ وذلك الوجه الذي جاء على عجل، من أين جاء الأستاذ همام؟

أولاد المخيم كلهم تمنوا لو كانوا الأستاذ همام.

مرة واحدة تغيرت وجهة أمنيات الشباب في المخيم، من رونالدو إلى الأستاذ همام!

كانت خطواته السريعة نحونا، وملابسه المكوية بعناية شديدة، وبخاصة بنطلون الكتّان ذا الخط الواحد المارّ بركبة تفرج عن امتلاء ملفوف، وصوته القوي، ويده الناعمة التي تخلو من الشقوق والجروح، ونظارته اللامعة، كل هذا جعلهم مشدوهين إليه، جلّ حلمهم، يتعاظم كلما امتدت رقابهم نحو مدرسة البنات، وهم يتأوهون: أخ! لو كنت الأستاذ هُمام!

لا يُدرسنا الأستاذ همام. يدرّس الصفّ الأعلى منا، لكنه يمُر من صفنا، فتصطف البنات على طول الممر. هند حلفت أمامنا أنه سيرضخ لجمالها، وسيقبل يدها كالأفلام، وأكملت وهي تغمض عينيها، سيقبلها بذلك الهدوء المفرط، ورجفة التوق تشلّه. ضحكنا عليها، فزعلت.

وجدتُ الدار مقلوبة، إذ كانت كل أشيائي في الساحة الصغيرة! بقيتُ في ملابسي، بينما ظهر والدي وأخي من بعيد يجران

fb/mashro3pdf

لوحاً ضخماً من الخشب الأملس، كنتُ أرقبهما بلا أسئلة، متتبعة ما يفعلانه بدقة.

كانت المفاجأة أن والدي قَسَم غرفتنا إلى نصفين، نصف ضيق وآخر أوسع قليلاً. مبهورة أنظر إلى الغرفة المقسومة، وبضيق أرى عتمتها من الخارج، ما الذي أقوله لأبي كي يعدل عن قرار شرع في تنفيذه وأوشك على الانتهاء! أغمضت عينيّ، أدخل إلى نفسي: الغرفة ضيّقة، روحي ضيقة، الهواء قليل، قليل، كيف يقسمها أبي هكذا؟ سأهيل الحائط فوق رؤوسهم، وتوجعهم، ثم يندمون لأنهم لم يشاوروني!

اللحظة التي أشرع فيها بالصراخ، هي اللحظة ذاتها التي تلمح عيني الأستاذ هُمام عند الباب الخارجي، حاملاً حقيبة، ومبتسماً لملابسي المدرسية، وربما لي!

هل يمكن أن يكون ابتسم لي؟

أخي وأبي يهللان، احتفاء يبدأ بالأوجه المنتشية ولا ينتهي، أرقب ضمّة والدي للأستاذ همام، يدخله الغرفة الأصغر، يشير بيديه وقدميه، يرسم أشكالاً، كمسطح رأسي وآخر أفقي، لا أفهم شيئاً، أنظر نحوهم وأنتظر أن يخرجوا لأدخل أشيائي المتناثرة، وأرتاح ... لكنهم لا يخرجون، يستمر والدي بالعمل، ويساعده الأستاذ همام وأخي، فأجن!

أنادي أخي، وأصرخ في وجهه: ماذا تفعلون؟ فهّمني!

fb/mashro3pdf

يجيب: الأستاذ همام سيستأجر الغرفة هذه، أبي سيفتح له من هنا باباً خارجياً، ونحن في الغرفة الصغيرة، التي تفتح على الصالة والخارج. ربك رزّاق!

أتأرجح بين الفرح والحزن، طوال الوقت، أبتسم وأشعر أن الدمع مخنوق في حلقي، أدخلت أشيائي بعد منتصف الليل، بقيت خارج البيت، أرقب الغرفة الأوسع في بيتنا التي صارت ككل البيت تشبه زقاقاً.

رتبت أشيائي كلها بعناية لتتناسب وحجم الغرفة الجديد، وحين انتهيت من كل شيء، ألقيت نفسي على السرير، حملقت بالسقف حتى نمت. نسيت صباحاً أمر الغرفة، وحين نظرت حولي، شعرتُ بضيق يفرد عضلاته على صدري فينتصر. ذهبت إلى المدرسة، كان الأستاذ همام يمشي ورائي. الشعور بأني تحت مراقبة ما، جعل حركاتي لا تبدو طبيعية، فكرت في منظري من الخلف، لم أفكر في هذا قبلاً، انتظرته حتى يمّر من أمامي، فأصبح خلفه بلا شكوك بأنظار تقلقني، لكنه ابتسم لي وقال: صباح الخير.

سأل عن دروسي وما إذا كانت الرياضيات صعبة، وطلب مني أن أسأله بلا حرج إن استصعبتُ شيئاً. لم أكن أنظر إليه؛ أمي علّمتني أن البنت المؤدبة تنظر نحو الأرض فقط، ولا تترك وجهها لمن أمامها. قالت أشياء أخرى عن الكلام مع الرجال، وأنهم يريدون شيئاً واحداً، لكني لم أفهم الشيء، ولم أعرف لِم هو شيء واحد فقط. هذا يعني أنهم لا يطمعون كثيراً. سألت أمي: البنات ينظرن، هل يردن شيئاً واحداً أيضاً؟

fb/mashro3pdf

لكنها هرعت نحو الباب وأغلقته، وفركت أذني بقسوة وهددتني: ابتعدي عنهنّ، يا ويلك، يحدث شيء تكرهينه. سألتها: مثل ماذا؟

لكنها رمتني بنظرة قاسية. عرفت أخيراً أنها تفتش أشيائي. سلّمها أخي الأكبر هذه المهمة بعدما رأى ملابسي الخاصة فاعترضت.

لا أنظر إلى وجه الأستاذ همام. لا أرفع وجهي نحوه، حين وصلنا باب المدرسة استرقت نظرة واحدة إلى وجهه، حين وعدت نفسي بأن لا أضرار وراء ذلك. سلّم عليّ، وسأل: أنتظرك عند الباب في الرواح؟

فانتشرت حرارة في جسدي، وشعرت بأني أرغب في حمام من ثلج.

تجمعت الفتيات حولي، ولم أقل شيئاً، قلت لهن إن الأستاذ همام مثل أخي الكبير، وأنه سكن في غرفة خارجية من بيتنا. نزعت صورة الأستاذ همام من أخي، فصلتهما عن بعضهما، أخي يعبث بأشيائي، لن يفعل هذا الأستاذ همام. كتبت زينب ورقة ووضعتها في جيب مريولي. ووشوشتني: الأستاذ همام مثل أخيك، أعطه هذه، وسأمنحك دفتراً كاملاً، وحين صمتُّ قليلاً، أتبعتها: وقلما!

وجدتُ الأستاذ همام في انتظاري عند الباب. أخبرته عن اليوم كله، وانتشرت في وجهي ضحكة حاولت كتمها لكني لم أستطع، وأنا أخبره عن زينب والرسالة؛ تقول ماما: قيمة البنت تفقدها حين تبين أسنانها عن ضحكة أمام رجل! تناسيت جملتها، ومددتُ يدي نحو يده، وأعطيته إياها، أطراف أصابعي لمّا لمست أصابعه، احترقت. فسحبتها بسرعة. هل شعر؟ سألت والخوف

fb/mashro3pdf

يأخذني. وصلنا البيت، رفع يده بخفة نحوي، ولوّح لي ودخل في غرفته. فعلت الشيء نفسه. استغربت أن الغرفة لم تعد ضيقة، وأن في وسعي أن أدور فيها دورة ليست بصغيرة. لكني أيضاً، لم أنظر إلى وجه أمي، ونكّسته إلى الأرض. صرتُ أخاف الذهاب مع الأستاذ همام صباحاً، أقف عند الباب وأسمع صوته وهو يبتعد نحو المدرسة، ثم أخرج. حين أمشي قربه، يحدث ألا أقاوم رغبتي في النظر إليه، والابتسام. لكنه ظلّ ينتظرني عند باب المدرسة وقت المغادرة، وظللت أنقل له رسائل البنات، وأزهاراً، وآخذ أقلاماً ودفاتر، ومساطر، ووعوداً بأشياء غالية كقرط أو أسورة. هذه المرة طلبت مني ليلى وحسنة وخولة وهند رداً على الرسائل، لكنه طلب ألا آخذ أي رسالة من البنات، وأنه لا يقرأها. أخبرته أنها أصبحت وظيفة جديدة أتقاضى منها أشياء حلوة، وسرعان ما أعطاني أشياء أجمل، لكني زعلت: راح احتراق أطراف أصابعي!

صباحاً، انتظرت أن يخرج عند الباب، لكنه لم يخرج. وحين شعرتُ أني سأتأخر، ذهبت إلى المدرسة. عشت يوماً كئيباً أنتظر نهايته. وحين وجدته عند الباب، هرعت نحوه وصرخت في وجهه: أين كنت صباحاً؟

ندمت لأني فعلت ذلك؛ بقي صامتاً طوال الطريق.

ولم أعد أنتظره صباحاً، أو أذهب معه مساء. صرت أتبعه بنظري في المدرسة حين يمر من صفنا. أسلم عليه وأنسحب، لكني بقيت أحاول معرفة إن كان خلفي أم لا، وبقيت أتخيل منظري من الخلف: حلو، أم لا؟

fb/mashro3pdf

الدنيا حرّ، آخر الربيع. بدأ أخوتي ينامون في حوش الدار الصغير. وظللت أنام في غرفتي. كان أخواي يشاركانني فيها، أنام على السرير، وينامان أرضاً بعيداً من سريري. يصبح الليل هادئاً، فأسمع نباح كلاب كثيرة بوضوح، وعتمة تشملنا. في المخيم، يشغلون الكهرباء ليلاً حتى منتصف الليل، ثم تقطع.

انتصف الليل، ولم أعد أسمع إلا صوت كلب هنا أو هناك. لم أفلح في النوم. كانت ليلة مقلقة، بعد دقائق، سمعت صوت همهمة وآهة مكتومة بين حين وآخر. شربت ماء كثيراً، لمّا شعرت بعد الآهة الصادرة بجفاف في حلقي. انتبهت إلى خط من النور على مستوى الحائط الخشبي قبالتي وقد اشتعل، نور شحيح، بدا من سراج صغير. حاولت النوم، خشخشة خفيفة ثم صوت الماء. اقتربت من خط النور الضئيل، أغمضت عيناً، وفتحتُ أخرى، كتمت شهقة في اللحظة الأخيرة من خروجها. جالساً على كرسي صغير، ظهره نحوي، عتمة ونور يلعبان، وماء وبخار، ورغوة صابون كثيرة على رأسه. يسكب الماء، فيصبح ظهره نقيا، أبيض. شامة حمراء، أعلى ظهره نحو كتفه الأيمن، يحكّها قليلاً، فتحمّر أكثر، حبة فراولة، حبة فراولة!

كنت أغني لها، بدا لي أني رفعتُ صوتي، أن شيئاً ما وصله، فاختبأت في فراشي أرجف.

مرضتُ. أصابتني الحمى. رحت في هذيان طويل، أحلم بحبة فراولة في فمي. حمدت أمي الله. كان موسم فراولة على أية حال. وأطعمتني حتى ظنّت أني شبعت. راحت الحمى، ولم أشبع!

fb/mashro3pdf

زارني الأستاذ همام في مرضي، يقول أخي، وفضحتنا بهذه الفراولة في هذيانك، خجلنا، وخشينا أن يظن أننا لا نطعمك. راح واشترى فراولة لك.

عدتُ إلى المدرسة. مشيت خلفه. أحفظ مكانها. أستطيع أن أحددها من هنا. أرسمها في الهواء كمجنونة. التفت إليّ فانتظرني. يشعر بي! سلّم علي، وأصبح أحمر اللون، كفراولة كتفه. هذه المرة، نكّس وجهه، ومشى قربي صامتاً. لم ينتظرني عند انتهاء الدوام. ولم يذهب للدوام اليوم الذي تلاه، أخبرتني أمي أنه التقط المرض مني بسرعة. زرته مع أبي، زجرني أبي لأني سأذهب لأجل مسألة الرياضيات الصعبة، وهو مريض، ونثقل عليه. لكني أصررت إصراراً!

تهلل وجهه، أو أني ظننت هذا. وقام ليحلّ لي مسألة رياضيات عن انتقال السالب إلى طرف المعادلة، الانتقال الذي يحوّله إلى الموجب. كان واهناً، فصنعت له حساء، وجعل أبي يرسل دعوات بالرضا عليّ إلى يوم القيامة!

ظللت أحلم أن حبة الفراولة ستؤكل. أن في الإمكان مضغها على مهل. وأنني سأملك وقتها بيارة ضخمة. كل ليلة، أرفع قميصه، كل ليلة أتحسس مكان الفراولة، أنظر نحو لونها الأحمر، وأمضغها على مهل، وحين تصبح في فمي، يتأوه كما سمعته تلك الليلة، وينغمس في النور والعتمة، في الرغوة على رأسه، وفي الماء، يظهره نقياً. وحين تولد على جلده حبة فراولة جديدة، أكون استيقظت من نومي.

fb/mashro3pdf

ضحكات من زجاج

هكذا كانت تصعد الجدار السميك!

تعتريها رجفة، فتمسك أصابع فاطمة بقوة، ثم تغمض عينيها؛ فجأة خافت أن تحفظ ما على الجدار من حفر صغيرة، ونقوش، وأسماء متقاطعة، فتوشم ذاكرتها!

تحاول أن تدخل حتى آخر ذروة من روحها، غير أنها كانت رغم ذلك، تتحاشى الانتباه لصوت باكٍ في داخلها كذئب. كل ما حولها أخذ يختفي إلا تلك البندقية التي رُفعت تجاههما، وصاحبها الجندي الأبيض الذي تكلم بعربية متقنة أرعبها، لتهرب! تهرب وتغوص في الصعود.

شعرتْ في لحظة غامقة، شديدة العمق كبئر، أن فاطمة تلدها...!

أمسكتْها بقوة. لمست الأصابع، ثم توغلتْ حتى عظم كفّها. تتعرق الأيادي المتشابكة، وحين تشعر أنها ستتزحلق، تتحسس الإسمنت بيدها الأخرى. كان منظر إبرٍ كثيرة ملقاة حيث يمكن أن تقع، تجعل الألم يتجاوز حدود ما عرفت حتى تلك اللحظة!

العَرق، والخوف، والعتمة التي هبطت نحو قلبها جعلتها لا ترى الطريق نحو آخر الجدار. ولمّا حررتْ يدها من يد فاطمة، بعد

fb/mashro3pdf

وقت شاق، وأصبحتْ بعد ثانيتين فوق النقطة الفاصلة بين الصعود والهبوط، فتحت عينيها، فرأتْ.

على حافة الجدار العليا جلست، حيث تتدلّى قدماها أخيراً، حرة. فاطمة تسبقها بخطوتين واسعتين نحو الأسفل. غير أن منظر «العيزرية» بأنوارها البرتقالية، وهدوئها العفوي، أسرها. الهواء الذي طبطب على كتفيها، ملأ روحها برغبة في غناء موشحة أندلسية، لولا نظرة اشتهت إلقاءها نحو الخلف المُرتقب كجنّة، لكانت ستحتفي بولادة ما تخيلت دِقّتها قبلاً!

كانت القدس خلفها، خلفها تماماً، وبجبن فاجأتها حدته، بدأتْ تنزل قافزة فوق مكعبات إسمنتية ضخمة، دون أن تحرّك رأسها، إلا للأسفل!

انتظرتها فاطمة بينما تقفز كطائر خفيف نقَر الأرض.

الفرق الوحيد الذي يمكن أن تجده، أنها تنقر الأرض لتثبتَ كنبتة صغيرة، بينما ينقر الطائر حبة قمح، ويحلّق، محتفياً بها، نحو السماء!

«ما كنتُ أعرف أن ثمن اللهفة مدفوع سلفاً!» قالت لفاطمة، بينما بدأت تلفظ أولى خطواتها بتأتأة لا تخفى!

لنلقِ نظرة، حيث وجهها بعد الجدار؛ فالجدار كمكان عنيد، أصبح منذ فترة غير بسيطة فواصل زمنية جيدة لتقطيع الملامح!

إنك لن تستطيع أن تقارب بين عينيها اللوزيتين الحانيتين اللتين تحفظهما «قبل الجدار» بما بعده، حين أصبحتا تستعيران عيني غزالة هاربة!

fb/mashro3pdf

لعلك لم تنسَ بعد كيف كانت تزمّ شفتيها كعروس طوال الطريق، بصفاء لونها الشرق أوسطي المشرب بحمرة التفاح، وخطوها الهادئ رغم اضطرارها للركض والقفز، مرة كي تلحق بسيارة «نمرة صفرة»، ومرة كي تقفز على ذيل الجدار الذي لم يتجاوز نصف متر. سيدهشك الآن لون وجهها المتقهقر كجيش مهزوم، وتبعثر خطوتها، وشفتاها اللتان تهدران كمحرّك قديم، بضحكات تتعالى!

أهذا كل شيء؟

ثمة ثوب أخضر زيتي تلبسه، مقصّب عند قبته إلى فتحة الصدر بخيوط ذهبية ناعمة. أنتَ لم ترَ الأخيرة؛ فقد كانت تسدل شالاً أسود بعروق متدرجة الخضرة.

«بعد الجدار» تمزّق طرف الثوب الأيمن، وتهلهل الحال بذاك اللون الإسمنتي المقيت. ولو دققت النظر عند تمزّق الثوب، فستجد توقيع الدم، وحركة قدمها التي مالت إلى اليمين أكثر، رغم الألم ... ربما لأنها أرادت أن تُخفي ما جثا على ثوبها!

فكيف تضحك بذاك القدر المتقصف كفرع زيتون متروك، والحزن يهتزّ فيها كوتر عودٍ عربي؟

تعال نتبعها لنعرف!

لم تستطع طوال الطريق أن تكبت ضحكاتها بالمرة ... .

جاءت مكتومة، غير واضحة بداية، أشبه ما تكون بأزيز باب غير «مزيّت»، يزنزن ثم يسكت، ويسكت ويزنزن، لكنها سرعان ما تعالت، حتى انفجرت قهقهات ملأت شارع «العيزرية» الرئيسي.

fb/mashro3pdf

في ذلك الوقت كانت «العيزرية» تغطس دون بالونات هوائية. الفراغ الذي فتح ذراعه لفاطمة ولها، أخذ يدغدغها، ويدسّ في جيبها قطعاً كبيرة من الحلوى.

الفراغ يكركرها، فتضحك. وتضحك فاطمة. تجلسان مرات على طرف الرصيف. تشعل فاطمة عود ثقاب -لا تدري من أين أتت به- ولمّا ينطفئ تتأكد من أنهما راسختان في فراغهما، وأن الفراغ يمارس دوره على أتم وجه.

فكيف تضحك «مجد» بذاك القدر المتقصف كفرع زيتون متروك، والحزن يهتزّ فيها كوتر عودٍ عربي؟

لنرَ ...

تدلّت الأنوار من شبابيك البنايات كقطوف العنب فجأة، يميل منها رجل أو امرأة، يرمونها بنظرة فاحصة أولاً، ثم يتحول الأمر سريعاً إلى سباب يعلو. أحياناً يخجلون فلا يتكلمون، ويكتفون بطرق النوافذ سريعاً لتصدر صوت ارتطام حاد. يعتّمون الغرف بعدها، ويغطون في النوم، نحن لا نعرف إن كانوا ناموا بالفعل، لكننا نظن ... .

على يمين «مجد» فُتحت نافذة، أطل منها عجوز «بصبص» عليهما مطولاً، ولمّا لم ترفعا غير نظرة أولية نحو نافذة يشع منها نور قوي، طَرَق الشباك.

فعل الطَّرق أصبح حالة اعتيادية بعد عشرين خطوة.

fb/mashro3pdf

كانتْ «مجد» تتساءل فيما لو تسرّب اللوم في سره: «اتقوا الله، قهقهات في رمضان، وفي العشر الأواخر كمان؟».

لكن «فاطمة» أعلنتْ بمرح: «ربما يقول، أخ ع شبابي راح...»، وضحكتْ.

من شباك آخر أطلت امرأة مبتسمة، شعرتْ «مجد» أنها تودّ لو كانت معهنّ. أدخلها زوجها سريعاً، شتمهما بألفاظ بذيئة وصلتْ الآذان فخجلتا «قليلاً» وصمتتا ثم عادتا للضحك.

كانت تمشي في الجزيرة وسط الشارع، بينما تخطو فاطمة قربها، أسفل الجزيرة خطوات سريعة.

شجيرات منحنية منحتها «مجد» لمسات خفيفة. لم يكن شعور الخذلان يجري في العروق حتى الدماغ بعد. كان يحضر على شكل بؤر، في الدمّ ... دون أن يتمرس السير في الخلايا العصبية. أما الآن، وقد تراءى لهما جدار الفصل -ذو الأمتار السبعة- الذي صعدتاه قبل نصف ساعة، فقد أصبح الخذلان يهجم غائراً من نهاية عصبية لأخرى، ليجثو شعور بالانقباض ورغبة في البكاء.

هما الآن على وشك الوصول إلى آخر شارع «العيزرية». عند دكان «السناوي» تماماً. انحنيتا مع الجدار، لتدخلا بدايات «أبو ديس».

«وصلّينا في القدس!» تقول «مجد».

«وستصفين الجدران المنقوشة بالأزرق الساحر، والأسود والبني، والساحة التي كانت ستفعل بك فعلها لو رأيتِها» تردّ «فاطمة».

fb/mashro3pdf

لكن «مجد» لم تعلّق.

ثم ماذا؟

نحن لا نعرف كيف تحوّل المشهد سريعاً من الحسرة والجبن إلى الضحك إلى البكاء؟

تعالوا نرتبها قليلاً: كانت تشعر أنها كلما صعدت بفعل شدّ يد فاطمة، تحيا! أن فاطمة تسحبها من الموت. ولمّا صعدت الجدار -ذا السبعة أمتار- كانت القدس خلفها، خلفها تماماً، وبجبن فاجأتها حدته، بدأتْ تنزل قافزة فوق مكعبات إسمنتية ضخمة، دون أن تحرّك رأسها، إلا إلى الأسفل!

ثم أخذت تضحك ...!

فكيف تضحك «مجد» بذاك القدر المتقصف كفرع زيتون متروك، والحزن يهتزّ فيها كوتر عودٍ عربي؟

هل كان الضحك تلك القشة التي تخفي أسفلها شعوراً بالخذلان؟ ذاك الضحك الذي «جلجل» «العيزرية»، فقذفتهما بالظنون في أواخر رمضان؟

وكيف صار الحزنُ شفيفاً في العيون، لمّا اقتربتا من الجدار عند دكان «السناوي»؟ هل قذفهما علو الجدار إلى لحظات صعوده، حين اختلط ملح الحزن، وسكّر الحياة؟!

وبعد؟!

fb/mashro3pdf

كان النشيج يعلو، كما كانت ضحكاتهما، اقتربتا من جدار الفصل... تُوشكان على ركله، وعلى تناسي ذلك الضوء الذي ضاق!

فهل حرمنا متعة البوح، إلا هو؟!

«كيف تبدو القدس يا فاطمة؟» تسأل «مجد».

لمّا صمتت، علمت أنه دورها من جديد.

«أن تضحك فرحاً، أن تلبس مشهد الصلاة في اللحظة الأولى، وأن تطير قدماي -هكذا تخيلت- أن روحي تطير خفيفة كفراشة ...».

«هكذا، نعم ... عليكِ أن تقولي ما تتمنينه» تردّ فاطمة.

كانت قد بدأت تشعر بالاختناق، وبأن الفراغ ما عاد يكركرها. أنه انتهى من إغرائها.

فكيف، وهويتنا خضراء، وخطنا أخضر؟ كيف يُترجم الأخضر للون يحاصرنا؟

الخطو الأخير باتجاه السكن الجامعي، كان قفصاً تضيع فيه مواسم الصمت. وتشرعان في ثرثرة باسمة سعيدة، ومتدفقة.

ولمّا فُتح الباب، جاءت الفتيات يسألن عن التجربة الأولى، راحت تصف القدس تماماً، وتغمز فاطمة من حين إلى آخر، علّها تسعفها بالتفاصيل، فتفيض ... .

كان يجب أن تصدّق ما تقوله، كي تواري صوت المشرفة وهي تستقبلهما بالصراخ: «وليش لهسا؟».

fb/mashro3pdf

صدّقت «مجد» أخيراً أنها زارتْ القدس!

فاطمة قالت: «في لحظة رهيفة، كلحظات التمسك بالحياة، ستصدقين أنك دخلتِ دمك، وأن القدس مشرعة أبوابها عند صمامات قلبك. حينها، سترسخين في القدس، حقيقة! حقيقة!».

فعادت تتأرجح بين الضحك والبكاء!!

fb/mashro3pdf

مرآة «1»

صوت داخليّ يوقظكِ، يقتنص البدايات ويعلو، يكرر ذاته عشرات المرات، ويثير نشوة قديمة:

«والآن، أقفزُ
صاحياً وأرى وأسمع. كلُّ هذا الزنبق
السحريّ لي: بالزنبقِ امتلأ الهواء كأنّ
موسيقى ستصدح».

يهيأ إليكِ أنها المرة الأولى التي تستيقظين فيها بتلك الرغبة في الحياة! فهل أثاركِ يا حلوتي أن يبعث شيء من «درويش» كأعجوبة ليغني وينشر فيكِ فرحاً خلتِ أنه لا يأبه بكِ؟ وهل يكفي بعض الفرح كي تتناسي فيه طعم الغياب ولعنته؟

يتمطى شيء ويمشي في جسدكِ الصغير، يبدو بعد تفكير ما أنها تلك الزنبقات التي يصفها درويشك. أطرافكِ تتلمس حوافّ السرير وترمي كل مبررات الفرح في مكان قصي، إذ ما الذي سيهم الروح الآن سوى الفرح ذاته؟ ترفعين رأسك ثم تلقينه بسرعة فوق الوسادة. يتحرك البؤبؤان حيث علقتِ قصائد أخذت لبّ قلبك.

ثلاث قصائد لمحمود درويش أضفتِ إليها مقطعاً مما نشر بعد وفاته، كبّرتِ خطها كي لا تنسي في غمرة المدى:

fb/mashro3pdf

«كي أوسِّعَ هذا المدى
كان لا بُدَّ لي:
- من سنونوة ثانية
- وخروج على القافية
- وانتباه إلى سعة الهاويةْ».

تزيلين الغطاء عنكِ، وتمشين في يومكِ بموسيقى الزنابق تلك. تأخذين الأنفاس العميقة في حين تتقافز الأسئلة أمامك كعصافير شقية... تغلقين باب الحمام؛ فالأسرار لا تخرج عن واحد ... تنظرين لوجهكِ في المرآة وتبتسمين. هي عادتكِ لتختبري صدق دقائق الفرح، وحين تتسع الشفاه يمنة ويسرة، تغمركِ موجة من الرضا، فتغسلين وجهك بماء يتناثر على ملابسك ليبلل قلبك!

تجربين تذوق الأشياء مغمضة العينين، فتتحرك الشفتان بأغنية فيروز التي لم تجرئي من وقت بعيد على غنائها: «من عز النوم بتسرقني ... بهرب لبعيد بتسبقني!»، إذ كم تقلقكِ تلك اليد التي تمتد على غير العادة لتنفيكِ من مساحة النوم اللذيذة، وتدخلك في ألق النشوة وإمكانات اليقظة بلذة مغايرة! وكم تغريكِ باللهاث خلف ذاتكِ التي تظنين -بقليل من الأسى، وكثير من التفاؤل- أنكِ لم تجديها رغم كل ما فقدتِ من قليل وكثير!

ياه! أتراه جميل أن تجدي ذاتكِ الأخرى؟ غير تلك التي في المرآة، والتي لها أنف طويل تشم الحكايات فتبدو غيرها، مليئة بتفاصيل الحلم. غير هاتين العينين أيضاً، إذ ترينهما مشبعتين بجنون

fb/mashro3pdf

يعجّل الزمن ويدوّره كما في نواعير حماة. تهزين رأسكِ للأعلى والأسفل، ثم تقتربين من المرآة بتساؤل يخطر على البال تواً: صحيح يا صغيرة، لِمَ كل هذا الشغف الغريب بصوت الماء في حماة تحديداً، يعني الماء هو هو، وصوته لا يتغير. وحدها الزنابق من تقول لك إن الماء كالمعدن، أجناس..!

«من عز النوم بتسرقني ... بهرب لبعيد بتسبقني..!».

تكركرين بالضحك ... تذكرين العريس الذي جاءك من أيام، حين سألكِ: ما الزوج في نظرك؟ فابتسمتِ. أغمضتِ عينكِ كأنكِ في ذروة حسّ لا يعني سواكِ، وفضحتِ القلب حين قلتِ: أن تجد ذاتك في مرآة لا تعكس صورتك!

ملامحه بدت مشدودة تنتظر أي ارتخاء يفرج عنها، ففتح فمه قليلاً، ثم تناثرت حروفه في الهواء: هه! ما هذا البخل!

عرفتِ أنه لا مرآة فيه لروحكِ، فابتسمتِ، وانسحبتِ من الجلسة دون كلام.

تتحسسين وجنتيكِ، وترفعين خصلات شعركِ النازلة على جبهتكِ، وتغسلين وجهكِ.

تعود الأفكار للحركة كبهلوان أمامكِ، لكن يد أحد إخوتكِ يلغي حواراً لا يتوقف إذ يطرق الباب، فتفتحينه بعدما تمتمتِ: يا ذاتي، أي يد ستسحبكِ مني ...، أي روح؟

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

شوكولاتة

«**ستنام على أرق يطول، فأصوات الشارع تقلقك** ...» تقول لذاتكَ.

«*أي شارع؟ الذي خارج نافذتك المكسورة أم هذا الذي يسكن أعماقك؟*» يسأل داخلك.

تسكتكَ هذه الجملة تحديداً، فتتمدد على سريرك، تتمطى حتى تتجاوز أطراف السرير، أنت تحب أن تظهر طويلاً، ولا تحب أن تلتصق صفة النحافة بالطول، لكنه رغم أنفكَ يكون ... .

«**لو أنك أكثر امتلاء** ...» قالت في مكالمة هاتفية، حين سألتَها إن كانت تحب هيأتك.

«*يقولون لي بعد الزواج ستسمن، ..*» قلت لها،

وسمعتَ أنفاسها، فشعرتَ بحرارة جعلتك تكبت سؤالاً مُلحّاً، أغمضتَ عينيكَ لتستشعر الفراشات التي بدأت تداعب جسدك، بينما صمتتْ على نحو موسيقي، جعل من مشهدك حالة فاتنة. كنتَ ستتجاوز وتخبرها بِمَ تفكر في تلك اللحظة، لكنك رأفتَ بحالك وحالها في بُعد يجعل من كلمات زرقاء كتلك، سوطا آخر ... ورغبة تزيد من قربك، واقترابك.

fb/mashro3pdf

«اعترف أنك وددت أن تبوح، أن ترى تقلبات ملامحها بأم عينيك، أنك تضغط على الحروف لتبدو أكثر دقة ووضوحاً ... وتخيلت أذنها بأقراط فضية صغيرة، أنك تقترب كي تقول، كي توشوش ...» تقول في داخلك.

تضربك قلة الجدوى؛ إذ ما الذي ستناله من التفكير الفائت بالبوح، وهي غادرتك، كماء الشلال، دون أن تلقي نحو تدحرجها ولو نظرة؟

«لم تقدر، مجرد النظر إليها وهي تغيب كان سيجعل الحسرة تشوي قلبك».

«ههه! نسيتها يا ولد، نسيتها، وتوهم نفسك بالوجع؟ تحب أن تودّع حبك القديم بشيء من التراجيديا ...! لولا أن قلبك خفق من جديد لـ«ريم» لما جاءت «عائشة» بهذا الإلحاح ... قلبك لا يتسع، ستزيح واحدة لتضع أخرى!» *يؤنبك قلبك.*

«بل قل، إنك تريد أن تحب بما يكفي لتنسى» ترد.

«ضامن حب ريم في جيبتك الصغيرة؟ يا رجل اعقل!!».

تتقلب في منامك، تدسّ رأسك أسفل وسادتك، تحاول أن تنام ... لكن الأفكار طاحونة «تجرش» داخلك، كالقمح، وترميك كقشره، ترميك ... رغم كل محاولات الطب البديل للدفع بالقمح كاملاً، كاملاً ... .

أن تنام، أن تمضي لحلمك كبطل لا يُقهر، أن تتخيل كم ستمتلئ، كم ستتفجر كينبوع رقراق كلما مدّت «ريم» يدها؟

fb/mashro3pdf

يدها البيضاء الناعمة الدافئة ... .

تستحضرها لتعيش في لحظة مفتوحة على شبابيك يطل منها الربيع رائقاً، دافئاً، مجنوناً بالروائح والدروب التي ستعرج إليها كلها، شبابيك تحمل الهواء، دون دخان الذاكرة، والوجع ... .

«**أتراك تفلح وعائشة نافذة لكل هذا؟!**» يسألك داخلك.

«هي ماضٍ، ماضٍ» ترد بانزعاج.

تترك فِراشك لصراع صدرك، وانفتاحه على احتمالات لا تنتهي، وتراقب النافذة المطلّة على الشارع الرئيسي.

«**أنت تهرب، تهرب!**» يقول.

«وبعدين معك؟» ترد بزفرة شديدة.

بدا الشارع هادئاً، سيارات قليلة تمر الآن، سيارتان أو أقل كل عشر ثوانٍ، أضواء، ومطر خفيف. إنارة برتقالية تنعكس على الإسفلت. قالت «ريم» يوم جاءت لتعرفك بنفسها، أنها رأتك تخرج من مبنى الكلية وأنت تحمل فنجان قهوة، كنت ترتدي معطفاً طويلاً، تابعتْ، بعد أن نظرتْ إليك وهي تأخذ نفساً عميقاً، أن ما جذبها تلك البسمة المواربة والأنفاس التي تكاد تلمّ كل الهواء بنشوة.

«**كم مرة فكرت في جملتها هذه؟ هل قالتها أم أنها رغبتك..؟**» يضبطك داخلك متلبساً «عينك عينك!».

ما زلت تتذكر عيني ريم التي عجنتْ صوتها بآهة طويلة محزنة، ورغم أنها كذلك، فقد حاولتَ كتمَ فرحة انفلتت على نحو مخجل!

fb/mashro3pdf

«**كنت تعشق الآهة كيفما خرجتْ..**» يقول.

«**جعلتك تبدو أحمقَ أمام نفسك، ولو لم تبدُ كذلك حقيقة، كنتَ تفتح فمك ناسياً أسنانك التي اسودّت لكثرة فناجين القهوة التي تبلعها. والسوس! لا تزعم بأن السوس لا يزورك!**» هههه، يضحك عليك.

لماذا تتذكر السوس الآن؟

هل للأمر علاقة بنص قرأته عن «الأسنان الكاملة»؟ تفكر!

«أوه، اترك هذا، ونم» ترد.

«**أسنانك بدأت تؤلمك، هل كان عليك أن تذكر ذلك النص..؟**» يلومك.

تنسى الوجع، وتأخذك لذة مدسوسة في الحشايا ... .

هو ذلك النصّ الذي علّقته فوق مكتبك، أردت أن تنسى فعلّقته، كنت تسخر من ذاكرتك الفولاذية ...؟ الذاكرة التي تحتفظ بأخاديد الأحداث، وتجاويفها!

«**لماذا لا تكون ذاكرتك عربية تهرّب ما فيها كقربة مثقوبة؟!**» يتحسر.

السن الذي في جوار السن المقلوع رجع يؤلمك، لثتك متورمة وحمراء داكنة، يكاد أي خدش فيها يغرق فمك بالدم.

تتلمس أسنانك بلسانك، تصل إلى لثتك، تضغط عليها، فيأتي صوتها من ذاكرة لسانك، يومها تذوقته، كان مختلفاً ... .

fb/mashro3pdf

«**انطقها مرة أخرى، قُلْها ...**» رجتك بمرح.

«*عائشتي، عائشتي، عائشتي ...*» كررت، فامتلأ صوتها بالفقاعات! كنت تطير مع كل فقاعة نحو السماء ... لم تكد تدري أن الفقاعة ستفقأ في نهاية المطاف، حتى سقطتَّ ... .

أنت تسقط الآن!

النافذة مفتوحة،

أمامك شارع يبعث على الملل بعد التأمل مدة نصف ساعة، حفظت خلالها دقائق الصورة، فتلقي نظرة خلفك: الساعة التي تتوسط الحائط -والتي يسقط عليها ضوء شحيح من أعمدة إنارة الشارع- تتحرك مع الأرض، لا تشعر بشيء سوى أصوات ارتطام لم تعلم أنه في جوفك. حاولتَ أن تسمع «تكات» الساعة، في هدوء مزعج كهذا، لكن الفشل يتربع فوقك كقطّ استيقظ تواً ... أنت تفشل في تمثيل دور المصغي للنهاية، تفشل في التركيز على صوت مستفزّ كالساعة؛ إنه يذكرك أنك تمضي إلى العمر، تمضي للنهاية ...

حين تنظر في عمرك، يملؤك إحساس بالقلق، غير أن صوتها يأتي، فينقذك ...

صوت ضحكة «عائشة»، همسها، خجلها في النطق بعد كلماتك الحارقة، وصمتها ... تسمع كل شيء فيها، كأنك حكيت معها تواً!

تشلّك فكرة أنك تتذكر صوتها بهذا الوضوح..!

fb/mashro3pdf

«ثلاث سنوات يا رجل!! ألا يكفي أن تتخيل أسنانك -التي ضجرت منك، وبدأت بتركك واحداً واحداً- وكأنها لا تزال في فمك؟ تتخيل أسناناً كاملة!».

أنت تمارس القصة ذاتها: أسنانك تؤلمك، ثم تضجر من الألم، فتدميه بلذة الشوكولاته السوداء، ذات الأغلفة الذهبية بدمغة ماركة «باتشي» التي تعشقها!

تعالج الألم باللذة، فتضع نهاية لكليهما، تنتهي لذة الشوكولاته، ويسقط سنك ... .

أهذا ما تريده؟ أهذا ما تفعله مع «ريم»، كي تنسى «عائشة»؟

الديك يصرخ، والفجر يتقبب ككرة نحوك. الفراش ثلج البداية، وعروقك تنبض بدم تخاله دافئاً، تجرب أن تجرح لثتك، بعود أسنان، كي تتأكد!

«أيحتاج الأمر لتأكيد؟» تستغرب.

كان يمكن أن تفعل ذلك قبل الآن، حين ...

«أحب أمنا عائشة، أودّ أن أكونها في كل شيء..» أخبرتك، فقررتَ أن تخوض تجربة الاسم للآخِر ... أغضبتها مرة وانتظرتَ، وحين جاءت رسالتها بعد اعتذارك يحمل ألقاً تنتظره كقطع السُّكر شعرتَ أن روحكَ تكتمل ... .

جاء صوتها: أهلاً بالباشا!

زعلانة إذاً! أين طار اسمي؟

fb/mashro3pdf

أجدها في قلبي تُلِحّ: «*والله ما يهجر قلبي إلا اسمك ...*».

حينها أصبحت مجنوناً، نزلت الدرجات ثلاثاً ثلاثاً. طالعت الندى على ورق الشجر، والبيوت الكبيرة، ثم وحينما غنيت، أحسست بقربها، تخيلتها على شاطئ بحر غائب، تركض على الرمل الناعم حافية، فتجري..، تجري خلفها، وتصرخ ملء جوفك، وتودّ لو تخبر الجميع أنك تحب، تحبها، أنت تحب ... .

والآن، ها هي عيونك تدور حول الذاكرة، تتراقص حولك، كأنما تخبرك أنك لن تنسى... ستدور باحثاً عن مرفأ في «ريم» لروحك، لقلبك، فدون مرفأ ستبقى في عرض البحر ... .

«*أتراها «ريم» تستطيع أم أنك لم تتوقف بعد عن الأمل؟*» تنسحب منك الكلمات.

يتوقف المطر، تنقشع غيمة كبيرة، فتظهر السماء والشمس، تريد أن تنشفكَ الشمس من بلل جسدك، الذي لم ينل منه قلبك إلا خيالاً أخذت تركض خلفه كـ «مأخوذ» ... .

«**أنت تحب اسمها، تحب أن تنطقه هكذا على مهل: عـائـشـة**» تشفق عليك.

كنت مجروحاً، تركتها بعدما قالت كلمتها التي جعلتك تتمنى لو أنك في وقت غيره، لو أنها جاءت بعد ذلك بسنين.

قالت ما قالته، فجزّت قلبك، ورحلتْ ... .

fb/mashro3pdf

«أشتاق للعصافير التي تتراقص في القلب حين تقع العين على حبيب، فيرتعش، أريد أن أرتعش لآخري ... أنا لا أشعر إلا ببعدك ..! لقد تعبت .. تعبت».

من يومها نشِفتْ ...

نظرة خاطفة للخلف، غرفتك تعيش فوضى قلبك، و«الأسنان الكاملة» فوق مكتبك، ما زلت تسأل نفسك:

«ألم تتمنى تلك النهاية؟ أن تصبحا قطعاً تتناثر وتلتصق، لتصفر بأسنان كاملة؟».

«أووووه! لِم تورط قلبك؟ ابدأ حياتك كيفما اتّفق، لا تفرط في تصور فمك ممتلئاً بالدم، الدم مالح ...، ابلع ريقك فقط، ابلعه واصمت..!».

ها أنت تبعله،

تبلعه ...

تبلعه!!

fb/mashro3pdf

وجرحي وردة بيضاء

-1-

على سريرك أنتِ، وكل الجروح خارجه... تنطفئ وتشتعل...

عقرب الساعة يكرر سطوه على أمنيات شتائية، عينان مغمضتان، ويد تتحسس الطريق لجسم معتم مشاغب على الطاولة... ينطلق منه صوت «مارسيل»: «تصبحون على وطن ...».

تتمتمين: «بل على أنفاس؟.. كبضع خطى تعدونها بتناقص».

شبه عتمة تصنع من زر الإضاءة معجزة.

تتساءلين: أكيد لم يُرد «أديسون» تصويب رصاصة على جسد، بِمَ كان يفكر حين اخترع المصباح؟

تؤدين صلاتك، دون أن تنسي أن «الصبر صلاة» كما قال لك عزيزك الغائب، وتلتحفين قلبك أكثر مما سبق ... .

«لا جامعة اليوم» هكذا بدأت النشرة الإخبارية الصباحية في يوم بارد مغلق ...

«أهي رصاصة؟» وأعدت جفنيك فوق العينين قليلاً في محاولة استدعاء أي قطعة حلم خجول ... .

fb/mashro3pdf

-2-

تكررين لثم كوب الشاي دون لذة... دون رغبة، إلا بمزاولة عادة صباحية... يختلف شرب الشاي باختلاف حدث لاحق وسابق، يتأرجح بين الرغبة الجامحة بالتلذذ وبين عادة بلع كمية من ماء ملوّن!

تخطر في بالك «الدائرة الكهربائية» بينما تقولين: تتوالى الأنباء أو تتوازى!

ثماني فتيات برفقتك، يلتقين حول شاشة التلفزيون، ليزدن من احتراق الخبز في الأفواه ...

تفكرين في الخروج لا لشيء إلا لتقولي: «وجرحي وردة بيضاء» ...

«الجزيرة»، «العربية»، «أبو ظبي»، «دبي»، «سي إن إن»، ... وتتذكرين أن تلفزيون بلدك «الوطني» أخرس!!

الدكتور «خضر سوندك» مختطف، تعلن واحدة من فتياتك الثمانية، دكتور الشريعة مختطف إذاً ...

تتمتمين: «الاحتلال خطفنا لنبدأ بخطف بعض».

«اجتماع مكة»، تعلن فتاة أخرى ...

«جعفر خرج من المستشفى، قالوا إنه بخير»، تقول ثالثة كأم...

«لن تقوم وحدة»، تتشاءم أخرى ...

وتبدأ الكلمات بالخروج بتصادم سهل: «هم، أنتم، لم، كيف...» .

fb/mashro3pdf

يسخن الجو، تلتقي الشتائم، تتفرق، فتح، حماس، جبهة ...

واحترقن الثمانية بالكلام والصراخ ...

ولم تقولي: «وجرحي وردة بيضاء» ... كان الصمت جرحك ولغتك.

يقررن إنهاء نقاش لن يحل «أوسلو» ولن يجلب «حكومة وحدة» كما يرسمها كهل بجوار الجدار منذ سنوات أربع، وتغيب كل في غرفتها لتعود الوحشة للتلفزيون المشتعل بلا صوت.

-3-

تخبرين صديق العمر بتفاصيلك التي ينتظرها بعيداً «هناك»، عساها تنقله حيث الـ«هنا» غليان وحيرة واكتواء بنار قريبة وبعيدة... هو الذي قال لك ذات مرة بعد تعبه من حجارة الصمت في صدره: إن البعد لا يقلل من مساحة الوطن بالقلب ... بل يفتحه على الوطن دوماً،... وإن غول البعد يهجم كلما هجمت سيرته ... وعلى إيقاع أخباره المتدافعة من الميدان.

لم تستغربي ذاك البوح المغاير عما اعتدت، فقد تحدث كمفجوع قريب من سخونة الأحداث وتمنيات نهاياتها، كأنه في معمعتها، لكنه زاد من مساحتك المعروضة للجفاف ...

يومها ذكرت له أبعاد جرحك، وركزت بدقة وأنت تصفين ذاك الشاب القصير الذي طالب بإزالة الباب الحديدي عن طرف الحاجز كي يمر!!

fb/mashro3pdf

قلت له بسخرية تعبر عن شيء يفترسك: «زمان كنا نطالب بالقدس، اليوم بفتح بوابة حديد صدئة على حاجز؟!!».

-4-

تدخلين شقتك مرة ثانية، في يوم آخر ماطر ومحمل بغيوم الانتظار... كان الترقب سيد الفتيات الثماني، وقنوات الأخبار السريعة حاضرة كالعادة تقاسمهن كل شيء حتى صفحات كتبهن... .

«الجزيرة»، «العربية»، «أبو ظبي»، «دبي»،... وتلفزيون «فلسطين» أخرس كعادته منذ زمن ...

تنسكب القهوة التركية على الغاز، فتصرخين لتخفيف وطأة الفوران: فأل خير ...

يعود الصراخ حامياً: «هم، أنتم، لم، كيف،..».

يسخن الجو، تلتقي الشتائم، تتفرق، فتح، حماس، جبهة، ... يؤلمك حضور خلافات الجامعة، إلى سكن الطالبات الذي أصبح جزءاً من حياتكن ... وتفكرين أن كل بيت فلسطيني هو على هذا الحال ... فالسياسة حديث يومي حتى في علاقة الزوج بزوجته ...

وفشلت قهوتك الفائرة في «صلح حديبي» مختلف ...

ذهاباً وإياباً، طريقك قصير، ... تجادلين جلدك، تلبسينه، تعلنين فجأة صلاة جماعة، يجتمعن.. يصمتن، يتمتمن بالكلمات ذاتها في تناقص واضح في الدعوات والأمنيات ... .

fb/mashro3pdf

ستبكين أثناء الصلاة بقوة ...

بكين ... الشارع يبكي ... والحي من حوله ... ياسمين الفلل يبكي بلا رائحة منبعثة، تندلق دموع المدينة وأرصفتها، وشجر اللوز ونباتات الجبل ... في انتظار وردة بيضاء كما قلت أكثر من مرة دون أن يصدقك أحد.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

طعم السنابل

السنابل الصفراء مقلقة،

المشي نحوها يحيط بخرافة عن امرأة تهطل من سماء ما، وتذيب الخوف الذي يخطفني نحو الأصفر!

يقولون إنهم حين يقتربون من السنابل الصفراء، تتحول بين أياديهم ناعمة، وإن تلك المرأة التي تهبط، تجعل ساعة الحصاد، في عزّ «الشوب»، لذة تتجاوز لحظة ما قبل اقتراب الشفاه التي أغرقها اللوز!

أخاف الأصفر، لكني أرغب في التذوّق ... .

مشيتُ في النهاية بقليل من الخوف، وأنا أزمّ طرف ثوبي الطويل، كي لا أتشاجر مع نبتة العُلِّيق، فأضطر بعد ملل فاجر، لقصّ ثوبي الطويل، وتحويله لقطع متناثرة تليق بدميتي الثخينة!

السنابل أطول مني، أقفز نحو السماء، للأعلى، نعم، للأعلى، كي أشهد منظر تلك المرأة ... لم أحمل منجلاً من قبل، أنا لا أعرف كيف أمسكه ... خِفتُ أن تراني جدتي فتحملق بوحشية ولوم شديدين، وتصرخ فيَّ: «بنات آخر زمن!! شو يا فلّاحة؟».

اختبأتُ عن الجميع. كنتُ أنظر من بين السنابل الطويلة الممتدة نحو الشمس وكأنها طرف الحبل الذي يجذبها ناحية الأرض ...

fb/mashro3pdf

كيف لي أن أتذوق، وأنا لا أحصد؟

ارتميتُ بين السنابل، تمددتُ على الأرض، ورحتُ أغني، وأغني ... ألمّ شفتيّ ثم أرخيهما. ولم أتذوّق!

رأيتُ «عزيزة» جارتنا التي تعرف كل شيء، كانت أصغر مني بأعوام، ثوبها غريب، مطرزّ على عجل، ملفوف حول جسدها الأسمر. منذ الصباح الباكر كنتُ أراها من نافذة غرفتي، تحدّث العنزة وهي تحلبها حتى يمتلئ الدلو. تغلي الحليب، وقبل أن يفور تطفئ الغاز -عكسي تماما!- وتقلي البطاطا على شكل أصابع، وتمضغ الطعام كما لو كان همّاً، وتحكي كثيراً مع الجارات، وتعجن وتخبز في «الطابون» أرغفة كبيرة، كانت تعرف كل شيء، وكنتُ جاهلة في كل شيء.

ركضتُ نحوها،

سألتها وأنا أشعر بالدم يتدفق ساخناً، إن كانت رأت المرأة الجميلة -فأنا أتوقع أن كل ما يهبط من السماء جميل، وشفاف كالمطر!- وهي تحوّل السنابل بين الأيادي ناعمة، وتمنح ... وزممتُ شفتيّ، دون أن أُكمل!

لم تقل شيئاً، أكملت عملها، وهي تحمل المنجل، نظرتُ إلى يديها المتشققتين وسألتها: «السنابل بين يديكِ ناعمة الآن؟» بدت كأنها لم تسمعني.

مددتُ جسدي، وأغمضتُ عينيّ، وغبتُ ... نظرت قربي، كان المنجل في مكانه -سرقتُ المنجل من بيت أم خالد، لأنها لن

fb/mashro3pdf

تخرج اليوم للحقل، وسأعيده طبعاً، أنا طيبة للغاية- لمستُه، قلدتُ طريقة حمل «عزيزة» واقتربتُ من السنابل.

كنتَ أنتَ، تشير لي ضاحكاً: «مش هيك، مش هيك»، ووضعتَ أصابع قوية فوق أصابعي، ورحتَ تجزّ السنابل ...

أصبحت السنابل ناعمة، ناعمة كزهر اللوز!

وصرتُ أتذوق، أتذوق ...

كانت المرأة الجميلة الهابطة من السماء، تحوّل السنابل بين يديّ، وتمنح الحصاد في عز «الشوب» لذة ...

لم أرها،

شممتُ رائحتها فقط!

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

تقلص مُرّ

-1-

تلوذ بجسدها النحيل لداخلها، تتقوس حولها، تبدو من الأعلى كفلقة فاصولياء صغيرة ... ومن جوانبها كنصف حلقة يزداد التناقص في كمال دورانها كلما اتجهت للأعلى حيث يسقط رأسها للأسفل سريعاً. كأنها بتلك الهيئة تتمرس على البحث عن ذاتها وإخفائها في آن!

ترتخي تلقائياً حين ترسو يدها اليمنى فوق قلبها، تفرد جسدها على استقامته، تغمض عينيها أخيراً ممتزجة ملامحها بألم ينسلّ من الجسد تدريجياً، وبشيء من نشوة انتصار ...!

-2-

الستارة تتحرك بهدوء لتلامس فاتورة الزمن على وجهها، وعلى بقايا جثة تنتظر استعادة الروح فيها.

حركتها المعتادة تدبّ. لكن ...

وبرغم أن الشمس بدأت في مداعباتِها الأولى لشباكها،

والعصافير تتقافز بغناء طريّ،

fb/mashro3pdf

فإن كل شيء يبدو هادئاً جداً،

ساكناً،

خاملاً،

فمنذ فقدته وهي تستيقظ بتلك الروائح النفاذة للموت، وبصوت يضجّ في أرجائها، وبطعم مُر لم تفلح حلوى العيد والمناسبات المتراكمة في قلع براعم النكهة الباعثة على القيء أيضاً!

الجميع يظن أن وليدها استشهد بلا رائحة، بلا صوت، ولا طعم، وكلما شرحت لهم عن صباحها المكتنز بتلك التفاصيل، لاكت ألسنتهم الريق وخمدت فجأة!

لم تعد تلوم أحداً؛ فالحياة تليق بوليدها هناك، أما هنا فخربشات الفقد تأخذها، وبهرجة الفرح تشدهم.

كلما تماوجت شهقات الخوف تحسست قلبها، وتسرب النعاس بهدوء بين أنسجة جسدها المتقلص بالآهة ... ونامت.

تلتقط كوب الشاي، ترشف رشفة وتتركه لتنساه! ستذكره فقط حين تغسله، لتنتشي بغتة؛ فابنها حي طالما لم يُغسّل ...

هي لا تكُفّ عن الصلاة لأجل ما غاب وما بقي، فصبرها ليس في بواقيها الشحيحة مطلقاً: زوجها توفي، وابنها استشهد، وابنتاها كلٌ في أرض تبحثان عن فرصة للتنفس بالشكل الصحيح: إغلاق الفم، وإدخال الهواء من الأنف مباشرة، دون أن تشهق عشرات المرات لأسباب تزداد ولا تنتهي!

fb/mashro3pdf

-3-

لن تكفّ عن استرجاع الحكاية، وبفخر ستحكي عنه لأم العبد التي تقف عند الجرس، ستُشربها كأس شاي كبيراً، وسيعاود صوتها التأرجح بين الدمع، والحزن، والفرح، ... ستتذكر فصولاً أخرى كل مرة، وستكبر الحكاية:

أرض «كسفا» المليئة بأشجار الزيتون تتمايل مع الريح، الجو خريفي، وهو يختم على زيتونة أبوته لها: يقطع الفروع اليابسة، «ينكش» أسفلها، ويغني لها أغنية جدته المفضلة: «يا زاريف الطول وقف تاقلك / رايح عالغربة وبلادك أحسنلك / خوفي يا المحبوب تروح وما ترجع / وتعاشر الغريبة وتنساني أنا».

يتساءل مراراً لِمَ يغنيها، لكنه لا يجد إجابة مقنعة تماماً!

هنيهات فقط، ما بين المقطع الأخير وأجزائه، هنيهات تشتت الأنفاس بين كلمة وأخرى، فيصمت ...

صوت ثقيل على الأرض يقترب من أغنيته المتصلبة عند «حُسن البلاد»،

الصوت الحديدي يقف مقابلها،

هو لا يزال منحنياً للأسفل، والأغنية تقف!

ثلاث سيارات من الجيب الإسرائيلي على الشارع، ينزل منها جنود -أو ما شابه- يلفون حول الأرض، يخرجون الأسلاك الشائكة ويصرخون بعبريتهم: اطلع!

fb/mashro3pdf

يتساءل بصمت ناظراً في أعينهم المختبئة وسط المدرعات: من أين؟ إلى أين؟ ولماذا؟!

لكن الإجابة تأتي عندما رفع الحجر،

صوت الموت يندفع ليلتقط بواقي الأسئلة ...

-4-

السؤال ذاته يتكرر: أتراه أراد أن أستقبل بزغرودة دمه المتمرغ بالتراب؟

أحقاً لم أستطع لأجله أن أكون أُماً أكثر مما كنت؟؟

ستسمع أم العبد أسئلتها، وستغادرها كما باقي البيوت العتيقة.

الأسئلة تضغط على الروح أكثر، بينما تضغط بإصبعها على فتحة «بربيش» الماء.

الماء يتدفق غزيراً، ضاغطاً، يُخرج ذرات التراب العالقة بين الأرضية المصبوبة بالأسمنت الخشن، رذاذ الماء المتطاير ينعش روحها الموجوعة بالغياب والوحدة... لتعي تلقائياً علاقتها بالأشياء من جديد!

وحين تُبلل بالماء أطراف قدميها ببطء شديد، حين تصمت من جديد عن بقايا التراب العالق بين أصابع مشطها، ستبكي لأجل الدماء التي نزفت حلماً لا يلامسه أحد ...

fb/mashro3pdf

تسقي شجرة الليمون فتسمع الأصوات تُعصر:

جلبة في منزل أخيها القريب،

الجلبة تحتد لشِجار،

الشِجار يعوم، الهواء يمتلئ بالحجارة،

ولّما مسح أحدهم زبد ريقه، وتابع: «أرض «كسفا» -الباقية- من حصتي أنا ...».

لّما اشتد التلاحم بين الأخوة،

لّما تراشقوا: ارض «كسفا» لي/

لي/

لي/

عرفت أنهم جميعاً خنقوا ابنها بعد موته، ودفنوا دمه!

فشدت بإصبعها على «بربيش» الماء،

لينزل الماء غزيراً،

غزيراً..

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

مرآة «2»

تقف الوقفة ذاتها أمام المرآة وتتفقد أعضاءكَ جزءاً جزءاً! وحين تطمئن إلى ثباتها وكمالها كما عهدتَ تنسحب بفرح غريب إلى المطبخ المزهو بالفراغ، فتملأ إبريق الشاي إلى آخره وتعدّ البلاطات المرصوصة في الطريق إلى الحمام، لكن خيبة أمل تذكرك بها فرشاة أسنانك الوحيدة: إذ كم من الوقت مرّ وأنت لم تتعود على إبريق يبلع فنجان شاي واحد!؟

تشعل التلفزيون الصغير، لتتشاغل به عن ندوب الهواء حولك، لكن الألم الموغل في صور التلفزيون القاطرة دماً، يضغط على روحكَ أكثر، فتتركه يعبّئ الفراغ بصوت تتجاهل معناه! ترشف كوب الشاي وأنت تحاول إيجاد لحظة مشتركة مع المدينة العابثة بالصخب حدّ الامتلاء.

من النافذة تبدو الحياة ممكنة جداً، فخارج شقتك تدرك أن الزمن يدفع بعضه كما العضلات، تتقلص أو تتمدد لا يهم، المهم أنها تتحرك على الأقل! أبواق السيارات، وإشارات ضوئية كثيرة، وشوارع فارهة، وألوان تعكسها الشمس الحارقة في عينيك المحمرتين.

فهل كنتَ ترسم قدر غربتك حين حملتَ قصيدة «المدينة» ومضيت تجتزئ السطور وتمتص المشاعر الممكنة؟ تشرب الحزن الذي يحتويها كما يجب، وتحاول أن تبتسم لتلك المضيفة الجميلة

fb/mashro3pdf

ولطفل تشبث فيك ظناً أنك أبوه. أنت الرجل الذي تجرب الغربة للمرة الأولى، وتلوك الدمع دون أن تتقيأه ...!

«قلت: سأذهب إلى أرض ثانية وبحر آخر
إلى مدينة أخرى تكون أفضل من تلك المدينة
كل محاولاتي مقضيّ عليها بالفشل
وقلبي دفن كالميت
إلى متى سيكون فكري حزيناً أينما جلت بعينيّ؟
حيث العديد من السنين قُضيت وهدمت وبددت
أينما نظرت حولي بإمعان
رأيت خرائب سوداء من حياتي».

هكذا يبدأ الضجيج والانكسار معاً في خطوات «كفافيس» نحو الغربة مع طائر الكلمات المحلق في الحزن وفوقه وأسفله ...!

كالخطوات التي تتخبط فيها، ابتداء من اللحظة التي تقلكَ الطائرة من عمّان إلى دبي ... .

بضع لحظات إذن وكل شيء يتراكم في النفس بذاك الإحساس الذي يتناثر فيك حد الاختناق المصاحب بالضرورة لأعراض البعد. أين هذا المكان من ذكرى قريتكَ التي تغني الآن كأنثى أسفل مطرها وحبها واخضرارها ...

أين أنتَ من ابتهالاتها الصغيرة آخر الليل، ومن دعوات أمكَ حين ترفع كفيها وعينيها إلى السماء وترجّهما بإلحاح؟ أين أنت من ذاك الليل الذي يأتي بعتمة تظهر البدر على تمام استدارته المغرية؟

fb/mashro3pdf

الآن عليكَ ملء زجاجات الأمل القادم بهواء الوطن الحاضر أبداً فيك، وعليك أن تنام كطفل مهدد بفقدان لعبته، يغفو ويصحو يتحسسها ويعاود الاستيقاظ والنوم. عليك أن تكون كأنثى فقدت زوجها في الحرب فمسحت دموعها ونظرت في الوجوه تحمد الله على النعمة. فكيف تصبح الغربة وساماً يحسدك عليه الملايين وهم ينثرون كلاماً تعرف مسبقاً أنه لا يتجاوز نكتة ينتهي دورها حين تزبد بها الأفواه؟ كيف لهم أن يحسدوك؟ وأنت تبدو كنقطة سوداء وسط البياض، تمشي وتشعر أن كل ما فيك يشير إلى غربتك!

شيء ما يصرخ فيكَ كلما قرأت أكثر! فتلمّ بعضك وترتدي روحك المبعثرة قربك وتأتي البحر.

للبحر رائحة امرأة لم تعرفها يوماً، لها صخب هادئ، ونظرة قادرة على جعلكَ تحكي كل ما في جوفكَ دفعة واحدة. ربما لهذا تظن أن المرأة هي الكلمات، هي الاحتواء الذي يختفي أمام منارات الشاطئ ليلاً.

تحمل ورقة كتبت عليها:

«لن تجد بلاداً ولا بحوراً أخرى
فسوف تلاحقك المدينة
ستهيم في الشوارع نفسها وستدركك الشيخوخة
في هذه الأحياء نفسها وفي البيوت ذاتها
سيدب الشيب في رأسك
وستنتهي دائماً إلى المدينة نفسها».

fb/mashro3pdf

وترميها للبحر. فهل سيثور الآن، ليمنحك فرصة الصراخ بخوائك ووحدتك؟ أم أنك تنتظر منه أن تسيرا معاً كمحبين حتى التعب؟

أنت لا تعرف!

لكنك تسكن فجأة، تأخذك أنفاس مغايرة لنسيم بارد، شيء من الرائحة الباعثة على الاستقرار، شيء من البحث، ومن العنفوان والقوة، تلك التي يدفعها الحرج خارج الصوت والهواء والعمر. فتركض بلا نعل وتتبلل.

تتبلل بماء البحر عمداً وتخشى أن تنشف. كلما عاودتك كلمات القصيدة الأخيرة في خاطركَ ذهبت للبحر. أنت تخشى أن تنشف مثل كفافيس، وتخشى أن تصل بكَ التساؤلات إلى تلك النقطة:

«لا تتطلع إلى شيء في أماكن أخرى
ما من سفينة لأجلك، لا طريق.
ما دمت خربت حياتك هنا في هذا الركن الصغير
فهي خراب في كل مكان في العالم».

fb/mashro3pdf

خيط من دخان

تذكرين جملته: «الكرسي فارغ بانتظارها» ...

تزيحين قربه مساحة تكفي شبحها من الانزلاق بينكما، من حيث لا تدرين. مسافة جيدة لانتظار أقل ودفء أكبر!

تؤلمكِ سطوتها،.. فتهربين لـ «ذاكرة النسيان» التي بين يديك:

«وأنا أعرف القهوة من بعيد: تسير في خط مستقيم، في البداية، ثم تتعرج، وتتلوى، وتتأود، وتتأوه، وتتفتت حنيناً، وتلتف على سفوح ومنحدرات، تتشبث بسنديانة أو بلوطة، وتتفلت لتهبط إلى الوادي، وتصعد حين تتشتت في خيوط الناي الراحل إلى بيتها الأول ...».

تفكرين: القهوة هي الحب ...

تواسين ذاتك الضامرة في مقعد السيارة قربه، حين تقررين انتظار فنجان قهوة كذاك الشهي بين الكلمات، إذ يُسكت قعر الثرثرة باجتذاب اللذة إلى آخرها، في عراك السائل بالغاز، الطعم بالرائحة، فنجان مُعدّ لشفتيك وحدهما.

ما زال قربك ... وجهك للنافذة، وعبر الشبّاك على جانبي الطريق، سطور تطير بين بساتين الزيتون. يشدك إحساس قربه وبُعده، ربما تكفي حركة أقل من نصف دائرة بقليل، لتعرفي ملامح

fb/mashro3pdf

وجهه الآن، لكنك تؤثرين تخيلها ورسمها على زجاج النافذة! الأصابع التي رسمته، ذاتها التي تلحّ بتحسسه.

الحركة الأقل من دائرية، و ...

تصرخين: بلا ملامح، بلا جسد، وجهه بلا ملامح!

تحاولين التشبث بأمل وجوده، تفكرين في لمس يده، وحين لا تجدي سوى ملابسه فوق جسد لم تستطيعي تلمسه، يلفكِ الاختناق، فتصرخين تصرخين: بلا روح، بلا ملامح ...!

صوت ملهوف يلهث، تشتعل أضواء تزيل عتمة «عدمه»، لتدركي أخيراً أنك في سريرك، وأنه ليس سوى كابوس ...!

fb/mashro3pdf

سقوط بلا أجنحة

«البومة تحوم حول ذاكرة نسيتُها في بيت بنينا سقفه من أغصان زيتون يابسة! البيت سيتهاوى، قالت لي البومة، ولفّت رأسها كله، فانتابني هلع وجريت هارباً ... ستسرق ذاكرتي، وتبلعها!» يقرأ ما كتب.

– عادل يا عادل، ستبلع ذاكرتك؟

أسأله وأنا أفتح عينيّ إلى أقصاهما كأني أبحث عن شيء هلامي!

– *الذاكرة لا تُهضم، لن تستطعم البومة أي ذاكرة، ستتبرزها... سأكمل لك الحكاية لا حقاً. وأطلق ضحكة عالية وهو يأمرني بالنوم.*

* * *

سيارة الإسعاف تصم آذاناً تركت وظيفتها شاغرة! تسرع بمن فيها: أنا، وأمي، وأبي، وملاءة بيضاء تغطي نوم عادل حتى رأسه، أيدٍ تفرك بعضها، لا تريد الانفلات.

– وعدتني أن تكمل الحكاية، فهل تسلُ جسدك على رؤوس أصابعك وترتديه لتغادر بدل البومة؟! عد، هيا... أنا آمرك بالعودة. أقول يائسة.

fb/mashro3pdf

تصرخ في وجهي أمي ضاغطة على حروف الكلمة: كفى!

الألم يتدحرج على شكل كتل من مستحلب الزيت والصابون..

كفى! وتتوقف السيارة عند حاجز حوارة، وعجوزنا تبكي الوداع. أنا لم أبكِ، كل ما في الأمر أن الحكاية ناقصة، وأريد التتمة..!

- انزل.

ينبح جندي، فينزل السائق برتابة، يمدّ شهادة وفاة عادل، يبصق، يتبادل كلمات عقيمة لا أفهمها بالعبرية.

- افتخ.

ينبح من جديد مشيراً إلى الباب الخلفي.

- ميت، ميت.. يكررها بالعبرية أيضاً.

- بقول افتخ.

يصوب بارودته نحو السائق، ويفتح الباب بحذر شديد. ماذا لو لعبت مع الجندي قليلاً، وأخفته مثلما كنت أخيف عادل، وأنا أقف خلف الباب ...؟

- للميت حرمته! ما زال السائق المسكين يصرخ، وينسى أن صوته ليس إلا موجات تحت صوتية غير مسموعة.

يرفع الجندي الغطاء عن رأس عادل. لماذا شعرتُ أن روحي ستُبلع؟ أحاول أن أكتم صرخة: البومة تلف رأسها كلها، إني أرى البومة!

fb/mashro3pdf

الصوت غائب، كذهول من اكتشف معادلة رياضية تواً، دون أن يصدق!

جندي آخر يأمرني بالانضمام مع الناس، عند البوابات المعدنية، والتفتيش الممل. كنت أظن أنه سحب ذهولي بادئ الأمر، لكن انتشار الدهشة على وجهي كبثرات غامقة، ثم كلون بشرتي الشرق أوسطية يؤكد العكس... تسيّرني أوامر من كل اتجاه، أجساد متراكمة تلطم بعضها كألسن النار، وهدف الكل العبور عبر هذه النقطة الحدودية دون أن يخل بأمن الدولة المزعومة»، ههه!! أليس عليّ التوقف عن السخرية من نفسي؟ لكن لِمَ تقف هذه الحشرة على أنفي؟

أكوام من القش في الأرواح، تكفي هفوة هواء كي تكشف تلك الحفر الغائرة، أي احتكاك لفظي يكفي كي يثير هذه الجموع مرة واحدة، لتثور، ويبدأ الجندي بالصراخ أن أخرس! أهذا هدف لم أكن قد رأيته من قبل؟ رؤية المشهد مبسطاً أكثر!

يجب أن أنسى التفكير بهذه الطريقة الغبية، العبور فقط هو الهدف الآن ...

أتنهد ساخرة من نفسي: مررت!

على الجانب الآخر استرق النظر حيث تقف السيارات للتفتيش. سيارة الإسعاف لا تزال واقفة هناك! ألتمس الصبر صلاة، يرن هاتفي النقال:

- لم لا تزالون مكانكم؟

fb/mashro3pdf

- لم يسمحوا لنا بالمرور بعد، قالوا إنه مخرب!

- لكنه ميت! أي خراب؟ الله يخرب بيوتهم! أصرخ.

- ارجعي وجيبي هويته العسكرية، لن نمر دون ذلك! أمك تقول إنها في قميصه الأبيض.

أعود..

* * *

لَم أنظر في عيني عادل، كي يومئ بتكملة الحكاية بعد، لكني أشعر بروحه الآن مستذكرة سؤالي الأخير:

- عادل يا عادل، ستبلع ذاكرتك؟

- الذاكرة لا تُهضم، لن تستطعم البومة أي ذاكرة، ستتبرزها...

كأنه يناديني، كأن صوته يلاحقني:

- قل لي يا عادل، أسألك، ستظل تبلع ذاكرتنا؟

- لأنهم نسوا أنها تسرقهم، رأيتهم على الحاجز؟ لقد اعتادوا ذلك فما عاد الكلام سوى حروف مصفوفة بلا معنى ...

يوخزني صوت في داخلي:

أسرعي، هويته في القميص الأبيض ... أسرعي؛ إن له جسداً اشتاق مضاجعة أرض ظن دوماً أنه سيفقدها!

fb/mashro3pdf

شتاء متسكع

الشتاء يبدأ والدنيا هنا تشبه الصيف في بلاده!

شعور بلسعة برد تنتابه!

ينحني إلى الأسفل، يتلمس حذاءه ثم يعاود تلمسه في محاولة لتكذيب شعوره المتزايد بتشبع الحذاء بالبلل!

يهرب للأوراق المبعثرة حوله، لكن قطرات المطر تعرف طريقها في النزول بالترتيب المعهود: من خصلات شعره الخفيف، بين عينيه، إلى أنفه، لكنها هذه المرة لا تسقط ...! يحاول مسح قطرات المطر وحين لا يجدها يستسلم لخيبته ...

القطرة في خياله تكمل طريقها، من أنفه إلى يدها ...! يد «ياسمينـ»تـه تزهر أكثر كلما لمست قطرات المطر النازلة تلك ...

هو يحب ما يحدث بعد ذلك كثيراً، حين تبدأ «الياسمينة» بعدّ حبات المطر الساقطة من أنفه، واحدة واحدة. يحب ضحكها على كسر حديث في أنفه كلما مالت قطرة مطر باتجاه خده، يحب الفسحة المسروقة للنظر في وجهها الحنطي الصافي، النظرة التي تلونها باحمرار ساحر، حين يأخذه التقاء العينين لدفء يسري سريعاً في عروقه الباردة، ليشلّه رغماً عنه!

يفكر: فنجان قهوة صغير لن يكفي حضورها أبداً.

fb/mashro3pdf

مشاعر كهذه، لا يمكن له أن يذهب بها دون أن يمسكها من أولها إلى آخرها، حين يَحضُر الياسمين، على كل شيء أن يكون لائقاً بها، دبقاً، شهياً إلى آخره ...

ويطلب كأساً من القهوة على عجل.

يرتشف أول رشفة من فنجانه بينما يشعر بقطرة المطر ويدها تتلقاها من أنفه، يبتسم لِخِفّة تعتريه، ورعشة يجعلها فنجان القهوة ألذ.

يمدّ يده إلى وجهه، أنفه جاف تماماً، وهو أسفل حائط إسمنتي مسلّح، المكيف يشتعل طوال الوقت، وهي لا تأتي الآن إلا خيالاً. يتساءل: لِم تتغير الفصول في داخله كلما تذكرها؟! ينتهي الدوام، ولا تزال يدها تلهو قرب وجهه، لتلتقط قطرة مطر لم تسقط على وجهه هذا الشتاء ...

يركن سيارته قرب شقته الصغيرة، ويمشي ... كل يوم يدرك أن هذه البلاد مختلفة، المشي مختلف، والدموع التي يذرفها مختلفة أيضا.. وهنا، هي لا تتنفس ذات الهواء الممتلئ بكل الأجناس الممكنة، والدخان، واللهفة الغائبة عن الوجوه. ولا حتى رائحة البحر التي تهجم عليه بحزن مفرط.

هنا أيضاً لن يستطيع أن يشاهد معها طائر النورس وهو يضرب جناحاً بجناح كي يحلّق فوق سماء أبعد ...

يمشي، المشي حالته التي يهرب بها من هذيانه ليُسجن في حالة الممكن التي يريدها ويتمتم بها عادة: كل شيء ممكن.

fb/mashro3pdf

المحالّ تتراص في بهجة يحاول تذوقها.

يلفّ يديه حول شالٍ أبيض، يسحبه من مكانه، ويشتريه لها ...

يمشي إلى شقته، وحين يصبح رأسه فوق وسادة أحاطها بشالها الأبيض، كانت دمعته تسأل: هل ستطوّق كتفيها بهذا الشال حقا ...!

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

طفولة أخرى

تطبق باب سيارة خالية من الإناث سواها. كتف مجاور يرتطم بها من حين إلى آخر، فتنكمش على نفسها ...

- لو كان هو «هو»، لأرحت عمري على كتفيه! يشغلها التفكير بكلمات إبراهيم الأخيرة: «أمام الحب أصبح أصغر طفل في العالم، طفلاً لم يخلق بعد!»

«لو، لو، لو... لكنه...» تقولها منتبهة لقربها من مركز مجاله المغناطيسي!

كم أدهشها النيل في قلبه! وكم حلمت بتحسس النيل فيه!

تنزل من السيارة، وقد أتعبها الانكماش... وبعد الأمنيات...

يركض «ليث» نحوها، حاملاً طفولته متباهياً بين الأطفال بميلها الصاخب إليه، تحتضنه كما كانت تحتضن ملابس العيد في طفولتها، باللهفة ذاتها المخبأة عن عيني أمها، بالهدوء ذاته الكاذب ...

تقفز كلمات إبراهيم: «أمام الحب أصبح أصغر طفل في العالم، طفلاً لم يخلق بعد!».

تستشعر كلماته أكثر باقتراب ليث، فتجفل وقد راودها ذلك الإحساس الهابط من القلب، تُنزل الطفل من فورها؛ تخشى تحول الكلمات إلى كائنات تعج بالحياة!

fb/mashro3pdf

«لو...»، تضيف بلا إرادة: «لكن...»

في حقيبتها جلبت لليث كثيراً من الحلوى. لا تعرف لم أصبح لجسدها شهية مغايرة أيضاً! صارت تحب المالح!

تجلس محدقة بصغيرها: ينزع الغلاف، يتمعن الحلوى، يقسمها ثلاثة أنصاف، يأكلها، يلحس أصابعه متلذذاً. ينظر إليها ويبتسم، ينتهي، تحمله لتغسل يديه، تقبله مانحة له قطعة حلوى أخيرة. تحثه على أكلها لاحقاً. يهز رأسه، ثم يخرج ليتابع لعبه.

في الداخل، آبار تفجّرها اللغة!

يأتيها «ليث» باكياً، شاكياً طفلاً سرق حلواه وهرب. تستقبله كأم، كأنثى، كطفلة، يلقي رأسه على صدرها، لتطبطب بيد وتعانقه مواسية بالأخرى، يتشبث بثوبها مقترباً أكثر، لتقفز كلمات إبراهيم من جديد... يعود ذلك الإحساس المبهم: مراجيح، ارتفاع، هبوط،... فتبعد الصغير بقوة.

بنظرة يستنكر قسوتها، فيأخذ حقيبتها ويهرب. تلاحقه، تسابقه على الأدراج، يفتحها على عجل، لا يجد حلوى، فيأخذ قلماً ويهرب. تضحك بصوت عال، وتثب سريعاً أمامه كمصاص دماء، ثم تيأس لتراوغه كثعلب: حبيبي!

يرفض لأنها أخافته، تقرر التنازل عن القلم والعودة للمنزل، فيتبعها راكضاً، مادّاً لها يده، تأخذ القلم وتقبلها.

تغادره مكررة أسئلتها، أحاسيسها ... وكلمات طفلها الآخر.

fb/mashro3pdf

عند الباب ينادي أحدهم: ستمطر، أوصلك؟

تشكره رافضة، يعود فيقول: ستتبللين

- لا بأس ببعض المطر، وتبتسم.

هو لا يعلم أنها تحاول إطفاء حرائق أضرمتها في غاباتها بضع كلمات!

ترن رسالة، هو، إبراهيم: «كوني هنا، فأنا طفل محتاج لأمه، اتركي صمتك وتعالي دون حقائب سفر، ...».

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

حنين للماء

-1-

الأصوات تحتدم حولكِ، والعمر الذي يمتد خلف ابتسامات تخبو وتظهر بحجم ابتهالاتك وآمالك، ربما أقل قليلاً ... .

تذكرين اليوم الذي جاء فيه فراس ليمنحكِ عمراً بلون البلور: شفافاً ورائقاً دون تلك الدوائر التي تظهر كلما رمى أحد حجرا ما، الحجر لم يكن موجوداً. وكنت تبتسمين لذلك طويلاً.

في الصباح كنت تقطفين الزيتون مع أخوكِ، وتتذوقين الشاي على مساحة من الشعور الذي بدا أبكم لزمن مديد.

وحين أطل فراس بوجهه الأبيض المدور عرفتِ أنك اليوم تتناثرين وتصبحين غيركِ. امرأة فيك تهذي بصوت أرجواني يعبر الشفق وينتظر المساء كي يحلم أكثر. يومها ساعدكِ في حمل كيس الزيتون المقطوف، وحدستِ من فوركِ أن تلك إشارة لخير قد يأتي. لم تكوني قد آمنتِ بعد أنه قادر على حمل قلبكِ والذهاب بعيداً، إلى عمق السماء والأرض معاً، وأبعـــد ...

جاء لوالدكِ بعد منتصف الليل. متوتراً يعقد الكلمة ويفرطها، رغم كل الهدوء الذي كان يجاهد كي يبقى منعكساً على صفحة وجهه.

fb/mashro3pdf

والدك أيقظ حسن أخاك وسأله: هل حدث شيء بينكما مساء؟ لكن أخوكِ نظر إليك فغرقتِ في الأحمر.

فراس قال: أريد ابنتك ... وذاب في لونكِ الحنطي رغم أنك لم تكوني أمامه.

هل كان الأمر لا ينتظر الصباح؟ الكل كان يسأل في نفسه. وحده لا تعنيه الأسئلة. لأن الأجوبة بيديه. وتزوجته.

ثلاثة أيام سريعة وجاء بك فراس إلى الماء، فسبحتِ.

-2-

الكلام يتطاير في العيون دون أن تطلق الشفاه شيئاً. تتطاير كفقاعات صابون دون أن تُفقأ. تتطاير أمامك ولا تحتوينها إلا في العيون.

الشفاه أيضاً تتحرك خلفكِ. تسأل: لِم لا يتزوج فراس عليها. هي كالقربة، لا ماء يبقى فيها كي ينتفخ ليتثاقل بولد يحمل الآهة عن والده. وفراس يسمع، الكل يسمع، هو أيضاً كالقربة. تقول صديقتكِ، وهذا جيد لكِ ... إذ يسمع ولا يبقى شيئاً من الأصوات فيه، إنه يحبك. نقطة وانتهى. هكذا استخلصت صديقتكِ. وانتهى أيضاً!

سنة..

سنتان..

fb/mashro3pdf

خمس..

ولم ينتفخ بطنكِ بالماء.

وبقيت العيون تتلون، وتعكس ثرثرتها. ثرثرة اللسان هو ما لم يعد يهم!

يأتيكِ فراس، قلبه رقراق كساعة فجر، لا شيء يعكر صفاءه... كنت تتأملين كيف يتغير لون الليل للصباح. ترقبين الفجر كثيراً دون أن تعرفي!

حينما تزوجتِ فراس عرفتِ.
عرفتِ. فصار قلبه سرّك.

– 3 –

لِم لا يتزوج فراس؟ تثرثر فتاة تصغركِ بسنين. وترين في لمعة العينين صورته، فينقبض قلبكِ.

لِم لا يتزوج فراس؟ لأول مرة تخافين السؤال. وأنت تفقدين الكلام وتبدو ملامحكِ مموهة بحجم الغد الذي لا يأتي إلا في وقته.

تسألين، فتتغيّر ملامحه: أتحبني؟

فيأتي إصبعه إلى شفتيك، فتصمتين. لكنكِ بعدها رشحتِ بالماء والصوت، حين لفّك بالعرق.

وسمعتِ الفتاة التي تصغركِ تسكت، وتبقى عيناها تعكسان صورته. منذ أسكتك إصبعه، ما عاد قلبكِ ينقبض.

fb/mashro3pdf

انتفخ بطنكِ أخيراً، وصمتت الأصوات. خَبَتْ دفعة واحدة، وأنتِ عكسها بدأتِ تثرثرين وتضحكين، لأول مرة يقهقه فراس بصخب، لأول مرة يحملكِ كطفلة ويدور بكِ في أنحاء المنزل الصغير، لأول مرة يبكي كطفل عند مينائك المشرع أبداً له ...

يبكي.

بكى.

«سأصبح أباً».. يصرخ ويضحك، ويمشي، ويقفز.

بكيتِ أيضاً.

لا لأنك ستصبحين أماً. بل لأنك حرمته من كل هذا البريق والصخب. الفرح صخب. كنت تعلمين ذلك. وتضحكين.

-4-

يجول بعينيه في أرجاء جسدك المنهك. يقبل يديكِ. ويحمل الطفل بلهفة.

ينبع الحنين في وجهه. يضيء ويدمع. يكلّمه: تأخرت يا ولد، أنظر، أنا بابا. أحبك ... أحبك.

يمسح الدموع بكمه، ويسألكِ:

- ماذا نسميه؟ نسيت كل الأسماء التي اخترناها؟ هيا، قولي أي اسم، أريد أن أناديه باسمه!

fb/mashro3pdf

- قيس. أحب هذا الاسم. ما رأيك؟

لا ينتظر إذ يناديه: قيس يا بابا. انظر كم يحبك أبوك!

وينهال عليه بالقبل. وحين يصرخ قيسه باكياً، يضحك في وجهك: ملّ من بابا، يريد ماما. وتضحكان.

تقربينه من صدرك. ترضعينه وأنتِ تستشعرين روحك التي تمتلئ بالحياة وتتأرجح فرحة.

روحك تغني كطفلة مع كل قطرة حليب في فمه -كما كنت صغيرة-: هيلا هوبا، هيلا هوبا.. والأرجوحة تطير بكِ. تطير بأحلامكِ وتبعد الحزن. تبعده..

قيس، قيس، قيس ... ينادي فراس على ابنه الصغير. يلتفت إلى الصوت، فيبتهج: شايفة؟ بعرفني.. بعرِف إني أبوه.. مش بس إنتِ بعرفك..

وتتحاجان بفرح طفولي: أنتِ لولا رائحة الحليب ما بعرفك.

وتردين بعد ضحك طويل: وما دليلك على أنه يعرفك؟

-5-

تعرفان الصوت الذي يوقظ الصغير باكياً.

الذاكرة تحفظه جيداً.

الصوت الذي يقترب ويبتعد ليلعب بكما لعبة لم تتعودا عليها أطفالاً..

fb/mashro3pdf

الصوت بريدك. والبريد هنا قاتم اللون.

السواد حالك، لا يشبه الليل. يشبه شيئاً لا تدركينه.

يبكي قيس وتحاولان إسكاته دون جدوى. الحليب لم يعد يجدي، أرجحته في الهواء، هزه في الأحضان، المشي في غرف الدار كلها ... لا يجدي شيئاً!

يهبط فراس ناظراً إلى كل الأشياء كأنما يودعها. ويطلق قنبلته المبكية:

- تعالي نطلع من هون. بنروح ع بيت عمي. أو بيت أخوكِ. أي بيت ... هون ما في أمان. الطيارات بتقصف عندنا.

لكنك تنتحبين فجأة. تشهقين بصوت عالٍ وتدمعين. وقيس ينفجر بالبكاء ...

- خلص. بلاش نطلع أنا بدي بس تكونوا بخير.

ويضمكِ حزيناً. يمتصّ بكاءك وبكاء الصغير.

يتمتم بصوت عالٍ: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وتدركين أكثر أن كل الأشياء فقدت قيمتها عدا التمتمات. يقرأ عليكِ وعلى الطفل سوراً يحفظها، وأخرى لا تعلمين متى حفظها، وتتكورون كأجنّة في زاوية البيت.

أبيض. أبيض. أبيض... أبيض هو الفسفور المنقلب على غزة.

الكل يحتفل بالأبيض.

fb/mashro3pdf

العام الأبيض جاء بطفل عمره أقل من شهر. وفتح نافذة البياض. لكن الأبيض الآن مختلف.

أبيض أبيض، أبيض هو لون الفسفور.

عكس العالم نحتفل هنا. بطفل وقلب نابض. وملامح أدعية لا تنتهي.

حين ترجفين إذ يقترب الصوت، يتمتم فراس في أذنكِ تماماً:

- أحب الأرض. أحبك. أحب قيس. أحب الزيتون وهذا البيت. أحب غزة لأنها كل هذا ... الله معنا. لا تخافي.

-6-

الأبيض يصيب البيت.

تقرئين عليه آية الكرسي. وتتجهين للسماء. للسقف المهدم. للصوت الذي في قلبك: يا رب. يا رب.

غمضة عين. ويصمت كل شيء.

كل شيء ...

أنتِ وفراس وقيس.

لا صوت. الصوت بريد. والبريد فارغ!

الختم الأخير عليه باهظ جداً. لم يدفعه المرسل مسبقاً ...

fb/mashro3pdf

صمت قيس. ما عاد يبكي. ولا يجوع. ولا يتعلق بصدرك المبلل بالأبيض الطاهر.

أبيض السماء مدنس جداً. أبيض السماء، فسفور.

– قيس يا بابا. قيس يا ماما. قيس يا أنا ...

لكن قيس لم يعد قيس.

قيس طير الآن. طير يغرد لكِ ولفراس الذي يتململ بصوت مفجوع:

– للمستشفى. تعالي نروح. قيس رح يعيش.

يهدأ الأبيض.

– تهدئة. أعلنوها الآن. تهدئة لساعة، لثلاث ساعات، لست..!

تسخرين طويلاً ... وابنك شقفة ضوء عتمت فجأة. والعتمة في جوفكِ تتسع، وتمتد إلى ما لا نهاية.

– للمستشفى، بسرعة، أنت تنزف ...

– تعالي نقبر الولد.

تنزلق الكلمات بلا إرادة ...

– تعال نقبر الولد، نقبره ...

fb/mashro3pdf

رسائل للريح

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

درس في الوراثة

يا أمينة:

هل يروق لكِ أن ألتقي بك وأناديك «أمينة» كما لم أفعل يوماً، ملغية تلك الخطوط المعلنة بين طالبة ومعلمتها؟ وهل ستغفرين حينها زلاتي الصغيرات، وبسماتٍ لم تندلق من صدري أمامك -رهبة- على الإطلاق ...

ها أنا أمامك إذن!

منذ زمن بعيد لم أركِ، لعلها خمس سنوات مرت أو أقل بقليل. قلبي الراكد شَعر بماء نهر فاض كالنيل على عُجالة وملأه بالخيالات الخفيفة والذكريات الطفولية وتلك المسافة التي تحمل نشوة مارقة كبدايات الأشياء كلها! فهل أعتذر منك لأني لم أزرع أرضي جيداً قبل أن أرشها بالماء وأغرقها؟ في مِصر يقولون إنه موسم الحصاد، وأن عليَّ قبله تحديدَ موعد البذر بدقة. لكني لم أفعل، لم أسأل حتى، ولم أبكِ على قطعة الأرض الصغيرة / مني، لأنها تناثرت بالماء بلا جدوى أخيراً، غير إحساس بقطرات تخب بيني وبيني..!

على غفلة أراكِ، وتنتابني تلك اللحظة العابثة/ الومضة حين يخبرني الدماغ أن شرخاً ما يلتئم فجأة، وأن قفزة قد يأمر بها ذلك

fb/mashro3pdf

الجهاز المعجزة في أي برهة، القفزة التي تعيدني بها السنون لما قبل الخدوش التي تشبثت على نحو دقيق بدمي، لّما أزهر شيء وتعفن في اللحظة ذاتها! لعله فجر كنت أتنفس فيه السماء زرقاء صافية كزجاج أملس، بينما لا يمكن لي الآن أن أتنفس دون ألم الحواف الحارقة..!

فلِم أجدني حين أتعرف على وجهك أقارن بين عمري وعمري، كأنه مشطور كنيزك ارتطم بفضاء كوكب قديم..؟!

أتذكر الطريق الرملي المبثوث من بيتنا إلى المدرسة، أتذكر القلعة القديمة الراسخة قرب شبابيكنا كمنارات حارسة، والصبر البني الموسوم بالقش، والباحة المصبوبة أمام الدار كلما حفقتها ذهابا وإيابا والكتب تتوالى واحداً واحداً، واللوح الصغير ورئتي المليئة بهواء الطباشير البيضاء والملونة، وصوتي البريء قبل أن يعرف تأرجح الأنوثة وميل الأشجار ورجرجة الماء ...

وجهك الآن غير الوجوه حين أمدّ يدي لأصافحك وأمنحكِ قبلتين رشيقتين على خدك الأيمن، أرى شيئاً فيه يطير، ألحظه ولا ألحقه!

فهل أنسى ألوان الهواء وأنا أحرّك شفتي لأخبركِ بأني تخصصت في الوراثة وتقنياتها؟!

عندما منحتنا الدرس الأول في الوراثة، كان «مندل» حاضراً كمراسم الولادة، نلُفه بالبياض ونحكي عنه كلما مر الوقت أكثر. نغسله كالأمهات بالآمال الممكنة لمساحة الغد المفتوحة على أحلام مرجوّة.

fb/mashro3pdf

«الفشل أن نبقى مركونين إلى قعر الحياة، «مندل» فشل مرات لكنه حاول، واستطاع أن يكون مؤسساً، لا رجلاً قادراً على النجاح فقط» وتتابعين شرحك على جهاز العرض، أصابعكِ من بعيد تلمع بجوهرة حمراء ثقيلة في إصبعك الأوسط، بينما توقظ الجملة تلك براكيننا الخامدة.

ستصدقين أني توهمت وجوده قربي طوال فترة دراستي! كان يشير بيديه إلى نبات البازيلاء الذي أجرى تجاربه عليها، ويحكي ؟.. يأتيني مدوّر الوجه، خفيف الشعر، معتدّاً بنفسه إذ ألحظ بسمته الجانبية بين وحين. ما زلت أتساءل: لِم أتخيل أصابعه كعازف البيانو، ناعمة ومرهفة وحساسة بما يكفي لمزاوجة نباتين بلهفة اللقاء وبتأهب انتفاخ جنين يفك اللغز. ستصدقين لو أخبرتكِ أني أناوشه بأن ما يبحث عنه يسمى الآن «جينات» فلا يقبل، ويسألني فاغراً فاه عن معنى ذلك، فأخبره كعبقرية نادرة أنها جزء من المادة الوراثية، أقول له لكنه لا يرضى. وحين يغيب خياله، أندم وأنام، فأراه ...

كان مختبره الوراثي -في الحلم- آخر الممر المتعب مفتوحاً نصفه كفم يوشك على ابتلاع لقمة كسيرة، وأنا ألاحق إحساساً بوهج الحياة؛ حيث النباتات منثورة في المكان ترتفع قممها النامية وتغمر الجفن بألوان بتلاتها الزاهية، لم أكن أفهم كيف كنت أرى مجسمات دقيقة للمادة الوراثية الـ دي أن إيـه -ولم تكن في زمنه قد عُرفت بعد- إذ تبدأ في التشكل إلى أن تصبح «كروموسومات» جاهزة لانقسام الخلايا، ونقل الصفات التي يحملها الأبوان للأفراد الناتجين، ثم تتربع على عرض الحائط صورة مكبرة لبويضة وحيوان

fb/mashro3pdf

منوي في التقاء بديع يغلب عليها ألوان دافئة ممزوجة ما بين البرتقالي والأحمر، تتشكل بعد ذلك سلسلة من التتابعات لتلك البويضة المخصبة -البويضة الناتجة من اندماج نواة حيوان منوي ونواة البويضة- إلى أن تصبح جنيناً كاملاً ...!

كيف لحلمي أن يختلط إلى ذاك الحد، لأرى جديداً بقديم؟! لكن المهم وقتها أن وجهه قَبِل اعتذاراً مبطناً بإيماءة، وغادرتُ الحلم فرحة!

أنت لن تسأليني عن تفسير ذلك، أعرفك.

ها أنا أجلس في كرسيي الذي يحمل لي صفة «معلمة» بامتياز، أجلس بريئة هادئة -على غير عادتي- وها أنتِ، تنادين عليّ باسمي، فيتدحرج الدم من الأسفل للأعلى معاكساً كل الجاذبية التي تلحقني، فأرسو على الأرض كقطة، فهل سيكون ارتفاع الدم في جسدي إعلاناً أولياً بإمكانات الطيران بنشوة تحقيق هدف ما!

أسأل قلبي وأنا أردّ نداءك، بأنه «نعم».

fb/mashro3pdf

ما لم أقله لعينيك

بعدكِ عتمة ...

الحروف المختنقة في حلقي، الحروف التي أحاول ابتلاعها أو إخراجها، محشوة كصبارة كبيرة، وصدري على اتساعه، بدا مغلقاً، غير آبه بسطوة الآمال القديمة.

الحلم ذاته يتكرر كل ليلة، منذ غبتِ وأنا أتذوقه وجعاً: ماتت..! يقول لي صوت في المنام، فأبكي، وأراكِ ممددة كما كنتِ في البياض.

والآن يا طفلتي، اليوم هو يوم ميلادك حقاً؟

أذكر المطر، أذكر رغيف خبز ساخن تقاسمته مع أخويّ، يوم ولدتِ. كنا أسفل الدرج نحاول أن نفهم أين ذهبت أمّنا، ولماذا تأوهت طويلاً، لماذا انتفخ بطنها على هذا النحو المقلق ... وحين أتيتِ، صغيرة، وجميلة، وباكية، بلفّة بيضاء وأقماط ملونة، بدأت الدهشة تتخلق في أحشائنا ...

هو يوم ميلادكِ إذن!

سأعترف أني جمعت كل رسومكِ، جمعتها وأنا أتذكر ما قلتِه لي، في يوم ميلادك الثامن عشر: ماذا أتمنى؟ ستصدقين، أنا لا أتمنى شيئاً على وجه التحديد..! فتحت فمي إلى آخره واستنكرت، سهرنا

fb/mashro3pdf

يومها طويلاً، ونحن نحاول أن نجد من الأماني ما يليق بنا، جلبنا الشمع، وحدثتكِ عن الأحلام التي تبدأ صغيرة ثم تكبر، تكبر.. قررت أن أجمعها كي أقول لك، في ميلادكِ التاسع عشر، أن كل لوحة/ كل رسمة عين/ شجرة/ لون، كلها كانت آمالاً ...

فماذا عساي اليوم أفعل دونكِ ... والساعة لا تحميني من الملح!

هل أخبرتكِ أن مكانك فارغ، فارغ ...

أني اتصلتُ بك طويلاً، وأني وددت لو يخرج صوتكِ ضاحكاً كما اعتدت! أني تلعثمتُ في الخطو، وتأتأتُ، ونسيتُ حصصي، وكتبي، ونفسي..!

ما زلتُ أحضر لنا ثلاثة أكواب من الشاي الخفيف، ما زلت أترك لكِ فسحة عند الشباك الأيمن في السيارة كما تحبين، وما زلت أمشي تاركة لكِ الوسط بيننا.

ها قد أصبحنا اثنتين بعدك ...

عند إنهاء روايتي أدركتُ ذلك عميقاً، كنتِ تقولين لي، قبل وفاتك بسويعات: هاه؟ أينها تلك السطور؟ وعدتِني أن تبعثيها اليوم .. وكررت وعدي بأن أفعل!

منتظرة رأيك كنت، منتظرة عيونكِ الفرحة باكتمالها، وتلك الانفعالات اللذيذة على وجهك،

فأين غاب يا قمري كل هذا؟

fb/mashro3pdf

كلام كثير لم أقله لك،

كثير، كثير،

فأين كنا من العمر يا أسماء!؟

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

رسالة للريح .. ولك

يا عزيزي:

لا أعرف لِم يسيطر الحزن على قلبي هذا الصباح..!

أترانا اعتدنا طعم انتظار فرح ندرك في داخلنا أنه لن يأتي، أم لأني اكتشفت أن رسالة بعثتها لك منذ سنتين لم تصلك؟!

أكان يمكن لها أن تغير شيئاً غير هذا الجفاء والفقد والمرارة؟

«ما بعرف».

تلك كانت كلمتي التي تكرهها، كنت أنتظر أن أعرف أمامك. الأشياء خارجك لا تُدرك، لا معنى لها، حتى وإن لمسناها باليدين!

خارج كلمة «ما بعرف» يكمن ذلك الاعتراف الذي يضنيني بأن لي عمراً لم أعرف فيه إلاك. بعدك كل شيء يتغير ليبدو أنت، كما لم يكن ...!

حزينة أنا هذا الصباح. ثمة شيء ما فوق وخز خفيف للذكرى، فوق ابتهالات عاشق -أبله مثلي- ليعود المحبوب من سفر يطول ويطول. ثمة شيء مختلف في طلتك التي تأتيني بكامل لونها الأبيض، وباقة الورد القديمة التي اخترتها لي يوماً بيضاء

fb/mashro3pdf

وحمراء. هل ذبل الورد يا عزيزي بعدي، أم أنك منحته لأخرى كما هي الأقدار، بلباقة النسيان حين يغدو رائقاً مجدياً، بصوت أجوف في قاع بئر هو ليس إلا صوتي الذي يبدو غارقاً باسمك؟

فلِم لا أستطيع النسيان؟ لِم تأتي هذا اليوم كأنما لم تغب، بعينيك المتوقدتين وشفتيك اللتين تنبئان بأكثر من أمل، وأكثر من صوت؟!

قربي المجسم الراقص كما أسميته، ثلاثة وجوه بأيدي ذائبة في بعضها، وشمعة أزلتها كي تخبرني أنني هي، بعض الكتب لك، وفردة قلم تعاهدنا ذات مرة على أن تحمل زوجه الآخر حين نلتقي. فلِم أحتفظ به وأنت لا تأتي، وربما لم يعد الأمل بلقاء كما كان في الجوف ممكناً. فلماذا ما زلت أطمح إليه كأنما هو إكسير لحياة لا تنتهي؟

لِمَ يبدو كإكسير وأنا لم أعد أعرف في أي البقاع أنت؟

أنا لا أنسى ...

هل تبدو هذه نعمة حقاً؟ صديقتي قالت لي احمدي الله على النعمة. لكنها معك تبدو هوساً غريباً لا ينتهي.

هل مضى الكثير حقاً من العمر؟ أنا كبرت سنتين وأنت أيضاً. كلما جاء أحد ليحدثني عن الحب أقول أني عجّزت، فيضحك، يسخر مني، وينشر في وجهه بثور خيبتي بك. عجزت، لِم لا أجرؤ على القول أني عجزت بعدك؟! وأن كل شيء فيّ لا يصلح إلا لقبر؟

fb/mashro3pdf

متعبة أنا، والحزن يهطل على الأبواب فيفتحها حتى وإن لم أُرِد ذلك. لكني أمام الوجع ندية جداً، ومستعدة له إن كان يحمل ذكراك أو اسمك.

البارحة مساء كان اسمك يعتلي صفحة إلكترونية تصادف أن فتحتها، فهب الحزن ككنز علي بابا -على غفلة- وبكيت ...

منذ مدة لم أبكِ.

لكني البارحة بكيت وعرفت أنك لم تزل في مكانك، ذاته.

فهل أحزن الآن أكثر لأن رسالتي لك منذ سنتين لم تصل؟!

ما بعرف..؟!

آه يا عزيزي

ما زال الجرح رطباً!

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

عتبـــة

عزيزي محمد:

لم تستطع أن تسمعني، رغم الكثير من المحاولات، لم يكن الهاتف خَرِباً، صوتي فقط هو الذي راح!

أمي قسّمت ذهبها على عدد إخوتي الثلاثة، وقالت إنها ستصلي وستدعو الله ألا يُطرق باب الدار على بسمة قذرة.

صرخت أمام أمي: وأنا، ألن تفديني بشيء!

نظرة رعب عميقة تحجّرت في عينيها ...

قالت جارتنا لأمي، إنهم جاءوا ليأخذوا ابنها، لكنها في سطوة الخوف عليه، أعطتهم كل ذهبها. ضربتْ كفا بكف، ثم أسندته على الخد اليمين، وصار قلبها يرنّ: لو عادوا، بِم أفديه!؟

اليد اليمنى فوق اليسرى، كأنني سأصلي في النوم.

اليد اليمنى فوق اليسرى، أضم رجليّ تماماً، وأغطي جسدي كله ... رأسي مليء بالأفكار التي قد تُرى من مقلة العين. أنام في العتمة دوماً، لكني بدأت النوم في النور. تعلمتُ ذلك حديثاً.. وحين يرفّ النوم ينتابني فرح غامر: أخيراً.. سأنام!

لم أنم منذ أربعة أيام. راحت حنين، خطفوها،.. شيّعنا جنازتها منذ أسبوع، كلما اقتربتُ من زميلة لنا في الجامعة وشوشتني:

fb/mashro3pdf

- وجدوها عارية! ومرمية في الشارع، عند عتبة بيت حسام. مجرمون.

- سمعت أن حسام لَمّ أجزاءها، في بطانية، وكان يبكي كالنساء ...

- قالوا إنهم سرقوا أعضاءها الداخلية، هناك خياطة عند المعدة ...

- اغتصبوها، أكيد اغتصبوها بالتناوب!

أنا أكره كل بنات الكلية، كلهنّ. كلامهن بقي يتردد، ويصدر أصداء مخيفة طوال الليل. لففت جسدي بالغطاء، من أخمص قدمي، وحتى رأسي. ووضعت خاتمنا أسفل الوسادة. اتصلتَ كثيراً، لكني لم أملك صوتا!

محمد:

أنا لا أريد أن أُرمى عند عتبة دارك. لم أتخيل ذلك قبل استشهاد حنين، إطلاقاً .. كنت أتخيل أني سأرقص كفراشة في كل بيتك، أني أتجاوز العتبات، العتبة للغرباء يا محمد، أنت قلت لي ذلك... لا أريد أن أموت غريبة!

سأصححها: لا أريد أن أموت غريبة عنك!

في لحظة ما، لحظة عميقة في آخر الليل، أصلي ... ينهشني جسدي، ورغبتي في أكلك. أنت لا تعرف كيف أريد أن آكلك! أريد أن تكون معي، في دمي، أن تغذي خلاياي كلّها. أحارب

fb/mashro3pdf

رغبتي في نهشك ككلب، بالصلاة ... حين أصلي أصبح هادئة أكثر، وأستطيع أن أخلد لنوم بلا أحلام.

قل لي يا محمد، لماذا أحببتُ الكلاب فجأة؟ أنا أكرهها، وأكره أنيابها، وصوت نباحها ... لماذا أودّ لو أنبح لك؟

أنا أحفظ رسم بابك جيداً، وأعرف عدد الشتلات الصغيرة، ورائحة الياسمين، وصوت النافورة، أنا أعرف عدد حجرات الدار، وكم بلاطة على الأرض، وأعرف كيف أترك صدري يتبلل قليلاً، وكيف يمكن ليدك أن تمتد لتفكّ شعري. لقد تدربت على هذا المشهد كثيراً... أعرف كل هذا، لكني لم أعرف إلى الآن، كيف يمكن للخوف الذي تسلل في الجلد والمسام واللحم والعروق والأوردة والنخاع والثغرات والشقوق والهواء والروح ... أن يُحارَب؟

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

فلاشات كاميرا

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

كعـك «1»

كانت العربة الطويلة المفتوحة من الخلف ترن من الأمام لتعلن عن جرار الغاز. ترنّ وتخترق أذني المستيقظة على الدوام، أشدّ الوسادة ضاغطة على رأسي، لكنها لا تُفلح في طرد الرنين الحاد ...

لا شك أني فكرت بعد حين، بأن عليّ الاستمتاع، فقد جعلني هذا الطقس مشدودة للأصوات.. أترقبها صباحاً، لتفتح باباً جديداً كل مرة رغم تكرارها! ثم أدمنتها، ولاحقتها، بطمع يزداد.

بعد عربة الغاز المزعجة، جاء بائع الكعك ينادي عن كعكة بسبعة قروش كاملة. بدأتُ أرى تموجات صوته التي تمطّ العكك لتصبح أشبه بثلاث كلمات معاً! أتخيل الكعكة المرشوشة بالسمسم، وأستنشق رائحتها ملء رئتيّ، ثم أقضمها على مهل، أشرب الماء بعدها مباشرة وأنا أتمتم في سرّي: «كانت مالحة قليلا!».

حين بدأتُ آخذ من أبي راتبي الصغير، وأنا في الصفّ الأول، صرتُ «أحوّش» قرشاً على قرش. أخيراً جاءت اللحظة التي تتحول فيها القروش الدافئة في يديّ إلى كعكة صباحية ساخنة. بقروش سبعة كاملة، صارت كعكة مدوّرة بنية بنضج عجيب. أفتح فمي على مداه، وأقضم أول لقمة ببطء شديد، وأمشي خطوة أمامية ناحية المدرسة، همْهمْتُ متلذذاً، ولّما فتحتُ فمي للمرة الثانية، كنتُ قد

fb/mashro3pdf

سقطتُ، وكانت الكعكة تتحوّل إلى لون رمادي، بعدما نُقِعت بماء المطر الراكد.

منذ تلك اللحظة بدأتُ أعدّ نفسي لخسائر أكبر، فأكبر.

fb/mashro3pdf

نغمة!

تنبعث المقطوعة الموسيقية من جهازك الممدد قربك على السرير، تنتشر باحثة عن رائحة ما، في طريق جسدك الناعس، تغمضين عينيك وتحاولين نسيان تفاصيلك الجديدة، عبثاً ...

تنخفض النغمة إلى أخمص قدميك، تدغدغك، تدخلك لتلاحقها صورة يديه، في عبثها الشقي بفنجان قهوته المقدس..، تنخفض النغمة هناك وهنا، تذوي ...

نقطة صمت، تلتقي العينان، ويفلت منك السؤال الأكثر إلحاحاً، تبحثين عن مكان آخر لتستقر عليه عيناك، فتكتفين بملاحقة حركة يديه أخيراً ...

ترتفع النغمة، تعلو، تصرخ، تصبح على وشك الانتهاء ... يلثم فنجانه للمرة الأخيرة، تعود النغمة ذاتها للاشتعال، تتبختر كأنثى بهدوء شمعة، ترشفين بقايا شايك بروية بينما يلقمك سؤاله: هل جربت ركوب البحر؟ تفاجئك الجملة، تحاولين إخفاء اضطرابك: لم أشاهد البحر بعد.

يبتسم بخبث قائلاً: عليك تجربته إذاً فهو قريب ...

ها أنت في وحدتك، والنغمة تتكرر، تغمضين عينيك علّك تنسين سريرك البارد والبحر الذي بدا قريباً ...

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

غياب

يدحرج حجر النرد على الرقعة الملونة أمامه، يعدّ بصوت عالٍ نقاط الوجه الذي رسا عليه: واحد، اثنان، ثلاثة ...

يحرّك الحجر الأزرق، تاركاً حجراً أحمر خلفه، يصرخ في الفراغ المتحلق حوله: فزت، غلبتك يا أبي.

يُفتح الباب، تدخل الأم مسرعة، وحين لا ترى أحداً سواه، تحضنه مفكرة: كلانا يحتاج اللعب خلف الغياب والفوز عليه ...!

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

.. وماتت!

غرفة كلوحة، حائط رطب يحمل صور أشخاص تجمعهم صفة الموت، نباتات زينة تحاول تجميل السكون أكثر، خريطة دون إطار لمنطقة مثلثة تأكل نصف الحائط، نافذة مشرعة للقادم، وامرأة تعشعش في الصوت، ... حذاء قديم يخطو فوق حروف خطابات هنا وهناك، راديو لا يتعب، طقّتان في القفل، أزيز باب صدئ يفتح... هناك تنصت لكلمات طائرة بين امرأتين ...

علّمها «الغياب» القفز خارج المكان، فقفزت ... حشرجة صاخبة من مئذنة لتعديل الصوت، تطلق المرأة الأولى نكتة بذيئة، هههـ، ستختنق الضحكة حين يعلو الصوت: «انتقل إلى رحمة الله الشهيد محمد حليمة ... يُنقل إلى مثواه الأخير بعد صلاة الظهر، تقبل التعازي في جامعة النجاح الوطنية» ...

عتبةٌ فشلت في فصل الضحكة عن الصوت!

حين ترى ابنها، بعد قليل، ستدسُ جسدها قربه، وتموت!

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

كعك «2»

ستمدّ يداً طويلة للأعلى، وستقف على رؤوس أصابعك، وحين تصل يداك الصغيرتان حافة النافذة، ستقفز بخفة للأعلى، ستنتظر أن تنضج الألوان أمامك، فقبل ذلك، كنت تنغمس مع رائحة الكعك بالتمر الذي تحبه.

ستجيء الصورة كاملة بعد ثوانٍ عبر النافذة، وستجد صديقك يقلّد تأتأتك، ويملأ فمه بالكعك، والكل يضحك له..!

وستقسم كذباً أنك بعدها ما أحببت الكعك أبداً!

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

Range Rover

بعيد هو الطريق من المطار إلى البيت، حقيبتي في الخلف، نوم خفيف يسيطر عليّ، فيسقط رأسي إلى الأمام، ثم أعيده للخلف، يسقط وأعيده ... نبقى نلعب أنا ورأسي حتى تصرخ أختي سارة: رِنْج رِنج!! فينظر الصغار عبر الشبابيك. تنبهني: شوفي، رينج! فألتفت حولي: من رينج؟

فتتابع باهتمام: رينج روفر! ما بتعرفيها؟ سيارة بدفع رباعي ووصلت 12 سيلندر! وملوكية من جوا .. ما شفتيها؟

fb/mashro3pdf

فهرس

مرايا

فراولة 9
ضحكات من زجاج 19
مرآة (1) 27
شوكولاته 31
وجرحي وردة بيضاء 39
طعم السنابل 45
تقلص مر 49
مرآة (2) 55
خيط من دخان 59
سقوط بلا أجنحة 61
شتاء متسكع 65
طفلة أخرى 69
حنين للماء 73

رسائل للريح

درس في الوراثة 83
ما لم أقله لعينيك 87
رسالة للريح.. ولك 91
عتبة 95

فلاشات كاميرا

كعك (1) 101
نغمة 103
غياب 105
وماتت 107
كعك (2) 109
Range Rover..... 111

fb/mashro3pdf